وقفات مع خطبة النبي ﷺ في عرفات

التوحيد

جماعة أنصار السنة المحمدية

أخطر حوار للرئيس العام حول الأحداث الجارية

- دعوة للاستقرار
- صيام العشر الأوائل من ذي الحجة
- مجالات الاستثمار في البنوك الإسلامية

مجلة ▪ إسلامية ▪ ثقافية ▪ شهرية تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية العدد ٥٠٤ - السنة الثانية والأربعون - ذو الحجة ١٤٣٤ هـ الثمن جنيهان

بسم الله الرحمن الرحيم

فاعلم أنه لا إله إلا الله

صاحبة الامتياز
جماعة أنصار السنة المحمدية

رئيس مجلس الإدارة
د.عبد الله شاكر الجنيدي

المشرف العام
د. عبد العظيم بدوي

اللجنة العلمية
جمال عبد الرحمن
معاوية محمد هيكل
د. مرزوق محمد مرزوق

التحرير
٨ شارع قولة عابدين. القاهرة
ت:٢٣٩٣٦٥١٧ . فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢

البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM

قسم التوزيع والاشتراكات
ت:٢٣٩٣٦٥١٧
ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM

المركز العام:
هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦-٢٣٩١٥٤٥٦
WWW.ANSARALSONNA.COM

بشرى سارة

تعلن إدارة المجلة عن رغبتها في تفعيل التواصل بينها وبين القراء في كل ما يتعلق بالأمور الشرعية لعرضها على لجنة الفتوى ونشرها بالمجلة على البريد الإلكتروني التالي: q.tawheed@yahoo.com

السلام عليكم

لا ضرر ولا ضِرار، ودعوة للاستقرار

إلى مَن يقودون حملة عدم سداد فواتير الاستهلاك الكهربائي والمياه والغاز، بالتظاهر تحت لافتات: «مش دافع»!! أليس بينكم وبين هذه الشركات عقود؟ فأين الوفاء بالعقود؟! والله تعالى يقول: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ» [المائدة: ١]، أم أنكم غفلتم عن كلام الله؟!

وإلى من يتسببون بقصد أو بغير قصد في إسقاط اقتصاد البلاد، ليؤثر على محدودي الدخل والفقراء، ومعه تسقط الحكومة الحالية! ثم ماذا بعد سقوطها؟! وما نوع الحكومة التي ستأتي بعدها؟! ومَن يحمل وزر المتضررين من الفقراء والمساكين من جراء سقوط الحكومة «أي حكومة» واقتصادها، أم أنها الفوضى؟!

ومَن يحمل وزر إضعاف مصر جملةً أمام أعدائها؟

نخشى أن يكون هذا مكرًا سيئًا عاقبته كما قال رب الخلائق: «وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ» [فاطر: ٤٣]، ويقال أيضا: هل ضمنتم إغلاق أبواب الرزق؟! وهل تملكون بسط الرزق وقبضه؟! وهل تقدرون أن تمسكوا الرحمة عن العباد إذا فتح الله للناس من رحماته؟!

اجعلوا عملكم لله وبالله يكن خيرًا لكم، بدلاً من اللعب على صناعة ثورة فقراء وجياع، فقدوا أرصدتهم من المال والمتاع، لتصفقوا على هتافاتهم: «الشعب يريد، خمسة جنيه رصيد!!».

التحرير

مفاجأة كبرى

نقدم للقارئ كرتونة كاملة تحتوي على ٤٠ مجلداً
من مجلدات مجلة التوحيد عن ٤٠ سنة كاملة

السنة الثانية والأربعون
العدد ٥٠٤ ذو الحجة ١٤٣٤

"في هذا العدد"

افتتاحية العدد : الرئيس العام ٢
حوار التوحيد : رئيس التحرير ٦
باب التفسير : د. عبد العظيم بدوي ١٣
باب السنة : د. مرزوق محمد مرزوق ١٧
درر البحار : علي حشيش ٢١
باب التراجم : صلاح نجيب الدق ٢٣
منبر الحرمين : عبدالمحسن القاسم ٢٦
الحج عنوان العبودية : أسامة سليمان ٢٩
دراسات قرآنية : مصطفى البصراتي ٣١
باب الفقه : د. حمدي طه ٣٣
واحة التوحيد : علاء خضر ٣٦
دراسات شرعية : متولي البراجيلي ٣٨
القصة في كتاب الله : عبد الرزاق السيد عيد ٤٢
باب الاقتصاد الإسلامي : د. علي السالوس ٤٤
باب السيرة : جمال عبد الرحمن ٤٩
تحذير الداعية من القصص الواهية :
علي حشيش ٥٣
المذهب الوسطي لأبي الحسن الأشعري في توحيد
الصفات : د. محمد عبدالعليم الدسوقي ٥٧
التربية الإيمانية : د. أحمد فريد ٦١
باب الفتاوى ٦٥
كيف نجعل الأشقاء أصدقاء :
عبد العزيز مصطفى الشامي ٦٩
القناعة : د. السيد عبدالحليم ٧١

رئيس التحرير
جمال سعد حاتم

مدير التحرير الفني
حسين عطا القراط

سكرتير التحرير
مصطفى خليل أبو المعاطي

الاخراج الصحفي
أحمد رجب محمد
محمد محمود فتحي

ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرشاً ، السعودية ٦ ريالات ، الامارات ٦ درهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ، الاردن ٥٠٠ فلس، قطر٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ، أمريكا ٢ دولار ، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٣٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد . على مكتب بريد عابدين مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون

٢- في الخارج ٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الاسلامى فرع القاهرة . باسم مجلة التوحيد . أنصار السنة «حساب رقم ١٩١٥٩٠/».

٧٥٠ جنيهاً ثمن الكرتونة للأفراد والهيئات والمؤسسات داخل مصر و٢٦٠ دولاراً خارج مصر شاملة سعر الشحن

منفذ البيع
الوحيد بمقر
مجلة التوحيد
الدور السابع

التوزيع الداخلي : مؤسسة الأهرام وفروع أنصار السنة المحمدية
مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

افتتاحية العدد

وقفات مع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في عرفات

بقلم/ الرئيس العام

د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي منَّ علينا بنعمة الإيمان، وجعلنا من خير أمة أُخرجت للأنام، والصلاة والسلام على من بعثه ربه بالوسطية والاعتدال، وعلى آله وصحبه الطيبين الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعدُ:

ففي يوم عظيم مبارك من أيام الله تعالى، اجتمع فيه شرف الزمان والمكان، وهو يوم عرفة خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع من أصحابه- لم يجتمع مثله له قط- خطبة بليغة، عظم فيها حرمات الله وشعائره، وبيَّن فيها الحقوق والواجبات، ووضع مآثر الجاهلية تحت قدميه، وأوصى بالنساء خيرًا- صلوات الله وسلامه عليه-.

وقد تضمنت هذه الخطبة مضامين شريفة، وأشارت إلى قواعد شرعية عظيمة، أرى ضرورة أن يهتم المسلمون بها، وأن يفقهوا معناها، خاصة في مثل هذا الزمان الذي خفيت فيه كثير من السنن، وانتشرت فيه الأهواء والبدع.

ومن أهم ما اشتملت عليه هذه الخطبة العظيمة ما يلي:

أولاً: حرمة الدماء والأموال والأعراض:

وهذا واضح في قوله - عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ» [صحيح مسلم ١٢١٨]، وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم الدماء لخطورة الخوض فيها، ووجود من يتجرأ على ذلك، وقد ربط صلى الله عليه وسلم حرمة الدماء بتعظيم الزمان والمكان، وحرمة مكة ويوم عرفة وشهر ذي الحجة؛ ليكون تعظيم الدماء أوقع في النفوس، وهذا واضح في قوله عليه الصلاة والسلام: «كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا». قال النووي رحمه الله في شرحه لهذه العبارة: «معناه أن الدماء متأكدة التحريم شديدته، وفي هذا دليل لضرب الأمثال وإلحاق النظير بالنظير قياسًا». [شرح النووي على مسلم ٧/١٨٢].

وقد كرر ذلك صلى الله عليه وسلم مرة أخرى في قوله: «وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ». وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم ينهى الله تبارك وتعالى فيها عن قتل النفس التي حرَّم قتلها إلا بالحق، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة: ٣٢].

ومعنى الآية: أنه بسبب الجرم والقتل الذي وقع في أحد ابني آدم ظلمًا وعدوانًا كتب الله ذلك على بني إسرائيل، والمقصود منه تعظيم قتل النفس والترهيب من الوقوع في ذلك، وما كتب على بني إسرائيل في ذلك يشمل هذه

الأمة، وقد قيل للحسن البصري: «أهي لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا؟!». [تفسير الطبري ٦/١٣١].

وقد ذكر ابن كثير عن الأعمش وغيره، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: «دخلت على عثمان يوم الدار، فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تَقْتُل الناس جميعًا وإياي معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلًا واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا، فانصرف مأذونًا لك، مأجورًا غير مأزور، قال: فانصرفت ولم أقاتل». قال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله- معلقًا على هذا الأثر: «هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مخرَجه، وقد رواه ابن سعد في الطبقات، وإسناده صحيح جدًا». [عمدة التفسير ٤/١٣٠].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «فالآية تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، وحرص كل واحد منهم على حياة الجميع، واتقائه ضرر كل فرد؛ لأن انتهاك حرمة الفرد، انتهاك لحرمة الجميع، والقيام بحق الفرد من حيث إنه عضو من النوع، وما قرر له من حقوق المساواة في الشرع، قيام بحق الجميع». [تفسير المنار ٦/٣٤٩].

> إن من المتأكد حرمته في شرع الله: الدماء والأموال والأعراض، وأشدهم حرمة الدماء، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً .

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا» [الفرقان: ٦٨، ٦٩]، وشدد سبحانه وتعالى الوعيد في قتل المؤمن عمدًا فقال: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا» [النساء: ٩٣]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن اقترف هذا الذنب العظيم الذي قرنه الله بالشرك في غير ما آية في القرآن الكريم.

ولشدة الوعيد الوارد في هذه الآية اختلف العلماء في قاتل المؤمن عمدًا، هل له من توبة أم لا؟ والراجح قبول توبته إن شاء الله تعالى. قال الشوكاني رحمه الله: «وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا» [النساء: ٩٣]، وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء، وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» [هود: ١١٤]، وقوله سبحانه: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» [الشورى: ٢٥]، وقوله جل وعلا: «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ» [النساء: ٤٨].

وقالوا أيضًا: والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان، فيكون معناهما: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل، والموجب وهو الوعيد بالعقاب، والحق أن باب التوبة لم يُغلق دون كل عاص، بل هو مفتوح لكل منْ قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدها تمحوه التوبة إلى الله، ويقبل من صاحبه الخروج منه والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي...». [فتح القدير ١/٤٩٩].

قلت: والذي عليه جمهور أهل السنة أن كل ذنب دون الشرك بالله يغفره الله لمن يشاء من عباده ولو بدون توبة؛ لقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ» [النساء: ٤٨].

وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم شأن الدماء في أحاديث أخرى كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» [البخاري: ٦٨٦٤]. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اجتنبوا السبع الموبقات». وذكر منها: «قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق». [البخاري: ٢٧٦٦]، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا». [البخاري: ٦٨٦٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة» [البخاري: ٦٨٧٨].

وهذا غيض من فيض في حرمة الاعتداء على الأنفس سواء كان بالقتل أو الطعن، أو السب والإهانة، ويدخل فيه تحريم الثأر.

ولو تأمل المسلمون ذلك ما تعدى أحد على أحد، وما سُفكت الدماء، ولا أدري كيف يتجرأ أحد على مثل ذلك بعد هذه التحذيرات، ويا ليت الظلمة الذين يسفكون الدماء بغير حق، والذين وضعوا في قواميسهم ومناهجهم اغتيال وقتل مخالفيهم يرتدعون عن الدماء والولوج فيها بعد هذا الوعيد.

تحريم الاعتداء على أموال الآخرين:

وقد جاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم حرمة الاعتداء على الأموال بعد الدماء مباشرة؛ وذلك لأن الأموال سبيل للعمران والحياة الكريمة في ظل الإيمان، وقد حرم الله علينا أن يأكل بعضنا مال بعض سواء كان بالنهب أو السرقة، أو الغصب، أو الاحتيال. قال الله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ١٨٨]، ومن شأن أكل أموال الناس بالباطل أن يغرس الحقد في القلوب، ويزرع التباغض في النفوس، وعندئذ ستنتشر الفوضى ويفسد النظام، وتختل جوانب الحياة بين الناس، وعلى المسلم أن يعلم أن المال المحرم لا يكاد يُنتفع به، وإن انتفع أحد به كان انتفاعه مشوبًا بالكوارث والفواجع، وما سيلقاه مستحلها عند ملاقاة ربه ومولاه أعظم وأشد، فالحذر الحذر يا أهل الإيمان.

أما تحذيره وتحريمه صلى الله عليه وسلم للاعتداء على الأعراض فيكتفي فيه بما جاء في كلام المعصوم صلى الله عليه وسلم في خطبته السالف ذكرها.

> إن أكل أموال الناس بالباطل يغرس الحقد في القلوب، ويزرع التباغض في النفوس، وعندئذ ستنتشر الفوضى ويفسد النظام، وتختل جوانب الحياة بين الناس.

ثانيًا: القضاء على كل مظهر من مظاهر الجاهلية:

وهذا واضح في قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» [صحيح مسلم ١٢١٨]. وفي هذا تحقير شديد لكل أمر من أمور الجاهلية، وعلى رأس الأمور التي كان عليها الجاهليون: الشرك في عبادة الله تعالى، وهو أعظم الذنوب على الإطلاق، والله لا يغفر لمشرك أبدًا بنص كتاب الله الكريم، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ» [النساء: ٤٨]، وقد وقع - وللأسف الشديد- بعض الناس في مظاهر شركية، ولم يحذروا هذا الذنب العظيم، بل إن بعض الدعوات لم تهتم بقضية التوحيد، وتعبيد العبيد لرب العباد!!

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته إلى بعض مظاهر الجاهلية بالموضوعة، ومنها دماء الجاهلية، وذكر منها دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، كما ذكر منها ربا الجاهلية، وأول ربا وضعه، ربا العباس بن عبد المطلب، والربا محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وهو من الكبائر، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً» [آل عمران: ١٣٠]، قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية: «لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد أن هداكم كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخّر عني دَينك وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافًا مضاعفة». [تفسير الطبري ٤/٥٩].

والتقييد بقوله تعالى: «أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً» [آل عمران: ١٣٠]، ليس المقصود منه النهي عن أكل الربا في حال المضاعفة خاصة وإباحته في غيرها، فالربا قليله وكثيره حرام، قال الله تعالى: «وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟» [البقرة: ٢٧٥]، وقال

الجصاص: «معلوم أن ربا الجاهلية إنما كان قرضا مؤجلاً بزيادة مشروطة، فكانت الزيادة بدلاً من الأجل فأبطله الله تعالى وحرمه». [أحكام القرآن ج١/٤٦٧].

ومن باب الفائدة في معاملات الناس اليوم، وحتى يحذر العباد من الربا؛ أذكر هنا قرارات مجمع البحوث الإسلامية في مؤتمرها المنعقد في شهر المحرم ١٣٨٥هـ بالأزهر الشريف، وقد تضمنت ما يلي:

١- الفائدة على أنواع القروض ربا محرم، لا فرق في ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكي، وما يسمى الإنتاجي؛ لأن نصوص الكتاب والسنة في مجموعها قاطعة بتحريم النوعين.

٢- كثير الربا وقليله محرم.

٣- الإقراض بالربا محرم لا تبيحه حاجة ولا ضرورة، والاقتراض بالربا محرم كذلك، ولا يرتفع إثمه إلا إذا دعت إليه الضرورة، وكل امرئ متروك لدينه في تقدير ضرورته.

٤- أعمال البنوك من الحسابات الجارية وصرف الشيكات وخطابات الاعتماد والكمبيالات الداخلية التي يقوم عليها العمل بين التجار والبنوك في الداخل، كل هذا من المعاملات المصرفية الجائزة، وما يؤخذ في نظير هذه الأعمال ليس من الربا.

إنَّ مطابقة الأفعال للأقوال من أهم دعائم الإسلام ، فهي هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فياليت أمة الإسلام تفهم هذا الخُلق في هذا الزمان.

ثالثا: مطابقة أفعال النبي صلى الله عليه وسلم لأقواله:

وفي هذا المقطع من خطبته صلى الله عليه وسلم فائدة عظيمة، وهي: أنه عليه الصلاة والسلام كان على رأس القائمين بأمر الله، وكانت أفعاله تطابق أقواله، وهذا من الإنصاف، وهو نموذج يحتذى، ونفهم هذا من قوله: «وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة»، «وأول ربا أضع ربانا ربا العباس بن عبد المطلب».

فيا ليت أمة الإسلام تفهم هذا الخُلق في هذا الزمان، وتقوم به بصدق وإخلاص لفاطر الأرض والسماء، وصدق الله في قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ» [الصف: ٢- ٣].

وقد ذكر النووي في شرحه للحديث: «إن الإمام وغيره، ممن يامر بمعروف أو ينهى عن منكر ينبغي أن يبدأ بنفسه وأهله فهو أقرب إلى قبوله». [شرح النووي على مسلم ٨/١٨٣].

رابعًا: الوصية بالنساء خيرًا:

وهذا من عدل الإسلام ورحمته، وبنائه للأسرة بناءً سليمًا قويًا متماسكًا، تحفظ فيه الحقوق والواجبات، وقد رفع الإسلام من قدر المرأة، وأعلى من شأنها، ونهى أن تكون متاعًا يُورث، وأمر بمباشرتها بالمعروف، كما قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ» [النساء: ١٩]، كما حفظ الإسلام للمرأة حقوقها المالية، قال الله تعالى: «وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ» [النساء: ٤]، وأبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من عدم توريثهن، وذِكْر النبي صلى الله عليه وسلم لهن في هذا الموقف دليل على مكانتهن، ويكفي أنه أوصى بهن خيرًا، فقال: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» [صحيح مسلم ١٢١٨].

خامسًا: الوصية بكتاب الله والاعتصام به:

قال صلى الله عليه وسلم: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله» [صحيح مسلم]. والوصية بالكتاب والدعوة إلى الاعتصام دعوة إلى التمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه كلها موضوعات تحتاج إلى بسط، لما اشتملت عليه من معان عظيمة، وقد أحببت أن أذكّر برءوسها في هذا المقال.

أسأل الله أن ينفع بها، ويسدد خطانا إلى الحق والصواب، والحمد لله رب العالمين.

حوار التوحيـ

أجرى الحوار
جمال سعد حاتم
رئيس التحرير

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

في وقت يختلط فيه الحابل بالنابل، وتختلط الأوراق، وتموج الفتن، وما زالت تراق دماء مصرية على أرض مصر.. والقلب يتفطر، والعين تدمع، ويكتوي الفؤاد على مصرنا الحبيبة، وما آلت إليه، ولكن الأمل في الله كبير أن تنقشع الغمة، وتعود مصرنا إلى ريادتها عربيًا وإسلاميًا، وأن تدفع مؤامرات الأعداء الذين يكيدون للنيل من مصر ومن شعبها، والله سبحانه وتعالى حافظ دينه، وحافظ مصر التي ذكرها رب العالمين، في كتابه الكريم، فقال عز وجل: «ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ» [يوسف: ٩٩]، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة في السنة المطهرة.

وفي ظل تلك الأحاديث كان لا بد لنا من استجلاء تلك الأمور من خلال هذا الحوار، الذي نحاول من خلاله إعادة التأكيد على منهج جماعة أنصار السنة المحمدية، وموقفها من الأحداث التي تمر بها مصر، في ظل الاتهامات التي تُوجه إلى الجماعة من بعض الفئات وإلى علمائها ومشايخها.

وجماعة أنصار التي تنتشر فروعها ومساجدها ورجالاتها في أنحاء مصر، جماعة دعوية تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة قد أعلنت موقفها منذ بداية الأحداث بأننا جماعة دعوية لن نشكل حزباً او نشارك في الممارسات الحزبية ولن ننخرط في أعمال سياسية بل نؤصل لسياسة شرعية من خلال منهج الجماعة منذ نشأتها.

فكان اللقاء مع الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية، ورئيس مجلس شورى العلماء، لاستيضاح الأمور حول كثير مما يشغل بال المسلمين والمصريين، ووجهة النظر الشرعية حول أهم ما يحدث على أرض مصر، وما يتعلق بحاضرها ومستقبلها، فكان الحوار التالي:

التوحيد: يسر مجلة التوحيد أن تقدم لقرائها هذا الحوار المهم مع فضيلة الرئيس العام.

بداية نرحب بفضيلة الدكتور الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية.

الرئيس العام: أهلاً وسهلاً ومرحبًا.

جماعة أنصار السنة جماعة دعوية

التوحيد: جماعة أنصار السنة المحمدية جماعة دعوية معروفة منذ نشأتها عام ١٩٢٦م، ونود في بداية هذا اللقاء أن نسمع كلمة يسيرة عن منهجها وأسلوبها في الدعوة إلى الله تعالى.

ج: كما أشرتم أن جماعة أنصار السنة المحمدية جماعة دعوية، وأسجل هنا أن صلب دعوتها يقوم على توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده دون سواه، وصدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو دين رب العالمين الذي يقوم على هاتين الركيزتين؛ إخلاص العمل لله، والاقتداء بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه أمارة الحب الصادق لله عز وجل. يقول الشيخ محمد حامد الفقي، رحمه الله، مؤسس الجماعة، في بيان دعوة جماعته: «دعوة الناس إلى التوحيد الخالص، وإلى حب الله تعالى حبًا صحيحًا صادقًا، يتمثل في طاعته وتقواه، والوقوف عند أمره ونهيه».

ودعوتها إلى هذه الأمور كانت وما زالت قائمة على مبدأ النصح بالحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين؛ امتثالاً لقول الله تعالى: « ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » [النحل: ١٢٥].

التوحيد: أشرتم في حديثكم أن جمعية أنصار السنة جمعية دعوية، وفي نفس الوقف نجد بعض البيانات التي تنسب إلى فضيلتكم -من خلال مجلس شورى العلماء الذي تترأسونه- تخالف منهج الجمعية؟

ج: هذا الذي ذكرناه هو منهجنا الذي ندين به لله عز وجل، أما ما ينسب إلينا باسم مجلس شورى العلماء أو غيره مما يخالف هذا المنهج، فنحن ننكره ولا نوافق عليه، وعلى سبيل المثال ما ذُكر في مؤتمر اسطنبول، الذي لم نُشارك فيه وليست لنا علاقة به، ولم نعلم بقراراته إلا بعد صدوره، وأنا شخصيًا لم أشاهد قراراته إلا بعد قرابة شهرين من انعقاده من خلال وسائل الإعلام.

مجلس شورى العلماء ليس هيئة رسمية

التوحيد: ما هي ظروف إنشاء مجلس شورى العلماء؟

ج: مجلس شورى العلماء هو مجلس تم إنشاؤه في فترة معينة كانت البلاد تحتاج فيها إلى استقرار وتوجيه الناس إلى ذلك، فاجتمعت مجموعة من أهل العلم، وأرادوا التشاور في هذا- مما هو شأن عام للمسلمين- دون الخوض في الأعمال السياسية، وأعلنوا مرارًا أنهم لا علاقة لهم بالأحزاب السياسية أو العمل السياسي، بل وجّهوا نداءً للعلماء والدعاة أن يربأوا بأنفسهم عن الانخراط في العمل السياسي، بل الاشتغال بتعليم الناس ما ينفعهم، وكانوا أول الملتزمين بذلك، فلم يتقلد

مجلس شورى العلماء هو مجلس تم إنشاؤه في فترة معينة كانت البلاد تحتاج فيها إلى استقرار وتوجيه الناس إلى ذلك.

أحد منهم منصبًا عامًا أو انتماءً حزبيًا، ومجلس شورى العلماء ليس هيئة رسمية تكوينية داخل الدولة، إنما هو مجرد هيئة للتشاور، وإبداء الرأي الشرعي فيما يقع من أحداث ونوازل.

آلية اتخاذ القرار في مجلس شورى العلماء

التوحيد: كيف كانت آلية اتخاذ القرار في مجلس شورى العلماء؟

ج: آلية اتخاذ القرار هو تشاور هؤلاء العلماء في الأمر قبل إعلانه، أمّا أن ينفرد واحد من هؤلاء بفتوى وينسبها إلى هؤلاء العلماء (باسم المجلس) فهذا لم يكن يحدث، ولا من نظام المجلس. وعلى كل حال فكان انعقاد هذا المجلس واجتماعه مرتبطًا بالأحداث، أمّا الآن فلم تعد الحاجة مُلحّة إلى اجتماعات المجلس.

الشأن العام والممارسات السياسية

التوحيد: أشرتم إلى أن مشاركاتكم كانت من قبيل المشاركة في الشأن العام المبنية على شعوركم بواجبكم في الاهتمام بأمر المسلمين وليس من قبيل المشاركات السياسية، فما هو الفرق بين الاهتمام بالشأن العام والمشاركات السياسية؟

ج: الاهتمام بالشأن العام هو الاهتمام بقضايا الأمة وما يعود عليها بالنفع من باب قوله صلى الله عليه وسلم: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، أمّا الممارسات السياسية التي تُمارس من خلال حزب سياسي أو غيره، فهذا ما نحن بعيدون عنه تمامًا، حيث إن في الممارسات الحزبية يكون الولاء والتعصب لرؤية ما، حتى وإن خالف ذلك الشرع.

أوجه نداءً إلى عقلاء الأمة ألا يتركوا الشباب في مواجهات دامية وأعمال تخريبية، وإن اختلفت وجهات النظر في قضية من القضايا، رجعنا إلى الحق وتحاورنا فيما بيننا بروح الألفة والمحبة.

نحن أمة واحدة

التوحيد: ما نصيحتكم للشباب الحائر في خضم الأحداث الجارية التي مازلنا نشاهد بسببها صباح مساء دماء تراق على غير وجه حق، ولا سيما ما يحدث على أرض سيناء؟

ج: أوجه نداءً إلى كل متحدث في هذا الأمر أو يوجه الشباب في مثل هذه القضايا أن يتقي الله عز وجل، وأن يدرك أن الشباب هم عماد الأمة بما عندهم من حيوية ونشاط، وبالتالي فيجب توجيههم بالرفق واللين والابتعاد بهم عن أي لون من ألوان العنف، وأود أن أذكر شباب

يجب أن يعلم الجميع أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فالمقصد إن كان صحيحًا فالوسيلة المؤدية إليه لا بد أن تكون صحيحة وسليمة من الناحية الشرعية.

الأمة المصرية بصورة خاصة أننا في هذا البلد نعيش لُحمة واحدة ولا يجوز أن نفرق الأمة إلى طوائف وأحزاب، فنحن أمة واحدة نعيش في بلد واحد ويجب علينا جميعًا أن نتكاتف لبناء هذا الوطن والرقي به، وتجاوز أي أزمة تنزل به. قال الله تعالى: «وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ» [الأنفال: ٤٦].

وأنتهز هذه المناسبة بأن أوجه نداءً إلى عقلاء الأمة ألا يتركوا الشباب في مواجهات دامية وأعمال تخريبية، وإن اختلفت وجهات النظر في قضية من القضايا رجعنا إلى الحق وتحاورنا فيما بيننا بروح الألفة والمحبة والأخوة، والحرص على مصلحة البلاد والعباد.

رؤية شرعية للخروج من المأزق

التوحيد: مع تطور الأحداث في بلدنا الحبيب، بعض الناس يقولون: أين أنصار السنة؟ فهل كان لكم دور في معالجة الأحداث والمساعدة على استقرار البلد؟

ج: الناظر في أحوال الأمة المصرية يجد أنها في الفترة الأخيرة مرت بها أزمات عصيبة، وكنا من خلال هذا المنبر الإعلامي المبارك (مجلة التوحيد) ننصح ونوجّه، ونأمر الجميع برد الأمر إلى الكتاب والسنة؛ استنادًا إلى قول الله تعالى: «وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ» [النساء: ٨٣]، ولقد كتبت مقالاً بعنوان «رؤية شرعية للخروج من الأزمة الحالية»، وكنا نعتمد فيما نقول أو نكتب على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، ولما رأيت فريقًا من الناس لا يضبط مواقفه بالشرع وجّهت نداءً في مقال عنونته بقولي: «يا علماء الأمة، الزموا السنة»، وكان الغرض من كل ذلك المساهمة في استقرار البلد وأمنه، وتحصين الشباب من الأفكار المخالفة للوحي الإلهي، غير أن بعض الناس عاب علينا عدم تأسيس حزب أو الانخراط في العمل السياسي، وكل هذا ليس من منهجنا ولا أهدافنا، وقد أعلنّا مرارًا أمام الجميع أننا لن نؤسس حزبًا أو نشارك

أناشد المخلصين من أبناء هذا الوطن أن يقفوا مع أنفسهم وقفة تأمل لنعود بعدها صفًا واحدًا كما أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم، ونسعى في خدمة الوطن، دون انتماءات حزبية أو صراعات على كرسي أو منصب.

المظاهرات مخالفة للشرع، ولا دليل عليها، وليست من طرائق المسلمين في الإصلاح والتغيير؛ لما تشتمل عليه من مفاسد وأخطار جسيمة.

في أحزاب، وسنبقى على أصول دعوتنا في العمل الدعوي بالتوجيه والإرشاد والنصح والبيان.

الوسائل لها أحكام المقاصد

التوحيد: ما قولكم في السلوك العدواني لبعض الناس تجاه مؤسسات الدولة؛ ظنًا منهم أن هذه وسيلة تحقق لهم مطالبهم؟

ج: يجب أن يعلم الجميع أولاً أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فالمقصد إن كان صحيحًا فالوسيلة المؤدية إليه لا بد أن تكون صحيحة سليمة من الناحية الشرعية، وأما ما يظن البعض من أن الغاية تبرر الوسيلة، فهو كلام باطل، ويؤدي إلى مفاسد عظيمة- نعوذ بالله منها-، وهل يمكن لعاقل فضلاً عن صاحب رأي ودين يقول هذا الكلام، أو يسلكه؟!

جماعة أنصار السنة حريصة على استتباب الأمن، ومواجهة الخارجين عليه، ودائمًا ما ننكر بمنهج الجماعة الذي تسير عليه وهو منهج أهل السنة والجماعة.

أما عن السلوك العدواني الذي سألتم عنه، فهو مرفوض شكلاً ومضمونًا، وليس من الإسلام في شيء، ونحن نحمد الله تبارك وتعالى أن عصمنا من الوقوع -على مدار تاريخ الجمعية- في شيء من ذلك، ونحن نحرص على سلامة الوطن ومؤسساته، وندافع عنها ونحميها، وكم حذرنا الشباب من الأعمال التخريبية أو الإجرامية!! وقلنا وكتبنا في ذلك الكثير.

وأذكر أنني كتبت في افتتاحية مجلة التوحيد في عدد ذي القعدة ١٤٣٠هـ مقالاً بعنوان: «يا شباب الإسلام متى كان التفجير من الإسلام؟»، وحذرت فيه من الفوضى والاعتداء، أو القتل والتفجير هنا وهناك، ونحن نرفض هذا المنهج والسلوكيات الخاطئة المنحرفة التي يقول بها البعض.

ننكر المظاهرات لما فيها من مفاسد

التوحيد: أنتم ترون إذًا أن هذه الوسائل التخريبية لا تجوز شرعًا، فما قولكم في التظاهرات التي يصر عليها البعض في هذه الأيام معطلين لمصالحهم ومصالح الناس؟

ج: أحسنتم كثيرًا في الإشارة إلى ذلك،

أتوجه إلى شباب الأمة المصرية خاصة بالكف عن التظاهر هنا وهناك، والانخراط في العمل ونبذ العنف بكل صوره وأشكاله، ونشر ثقافة المحبة والأخوة والعفو.

هذه التظاهرات ننكرها ونحذر منها بشدة؛ لما يترتب عليها من مفاسد، فكم قطعت من طرق! وأضاعت من مصالح! وأدت إلى ألوان من الفساد! وقد نهينا القائمين بهذه المظاهرات عن ذلك، وحذرنا من عواقبها الوخيمة، ونحمد الله أن عصمنا فلم نشارك في شيء منها، مع كثرة الداعين إليها، بل إنني أصرح لك هنا، أن الذين قاموا بهذه المظاهرات اتهمونا بالعمالة تارة، وبالجبن والانهزامية أخرى، وكل ذلك لم يؤثر فينا بحمد الله، طالما أننا نسعى إلى الحق، وإلى إرضاء الرب- تبارك وتعالى-.

ونحن نرى أن هذه المظاهرات مخالفة للشرع، ولا دليل عليها، وليست من طرائق المسلمين في الإصلاح والتغيير؛ لما تشتمل عليه من مفاسد عديدة وأخطار جسيمة، وأنتهز هذه المناسبة لأوجّه رسالة إلى الشباب الذين مازالوا يخرجون في بعض الميادين والطرقات وأقول لهم: اتقوا الله تعالى، وكفى ما أوقعتم البلد فيه وما وصلنا إليه، وقد سعيت أنا شخصيًا مع بعض المشايخ والدعاة والعلماء في إيقاف ذلك وإنهائه- دون جدوى- والله المستعان.

نأمل أن يتحقق الهدوء

التوحيد: ما قولكم في إصرار فئة من الناس على تصعيد الأمور وأنهم مستمرون في هذا حتى زوال الحكومة الحالية مهما آلت الأمور؟

ج- هذا من الأمور العجيبة التي يقع فيها هؤلاء، ولمصلحة مَن هذه التصعيد الذي قد يؤدي بالبلاد إلى حافة الهاوية؟ نسأل الله السلامة، ونأمل أن تحقق بلادنا نسبة عالية من الهدوء والاستقرار.

الحرص على أستتباب الأمن

التوحيد: بعض الناس يزعمون أنه لا طاعة لحاكم لم يأت عن طريق صناديق الانتخاب؟

ج: هذه مسألة مهمة أود أن أبينها هنا، لقد ذكرت من قبل حرص الجماعة ودعوتها إلى استتباب الأمن ومواجهة الخارجين عليه،

نتطلع إلى مستقبل واعد بإذن الله تنهض به الأمة من كبوتها، وتعيش حياة مليئة بالأمن والسلام والاستقرار.

ومواقفنا كان الهدف منها تحقيق هذه المصلحة، وعلى مدار تاريخنا الطويل، كنا نذكِّر القاصي والداني، بمنهج أصيل عند أهل السنة والجماعة، ألا وهو عدم الخروج على الحكام، ولي أنا شخصيًّا كتابات في هذا الموضوع، وقد أشرت فيها إلى المفاسد العظيمة والكثيرة المترتبة على الخروج على الحكام والولاة، وكلام أهل العلم على هذه المسألة كثير ومتوافر، وهذا قول جمهور الفقهاء.

قال ابن حجر في ذلك: «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء» [فتح الباري، ط دار المعرفة (١٣/ ٧)].

وقال الدكتور/ وهبة الزحيلي في أدلة الفقه الإسلامي: «ذهب الفقهاء الأربعة وغيرهم أن الإمامة تنعقد بالتغلب والقهر؛ إذ يصير المتغلب إمامًا دون مبايعة واستخلاف من الإمام السابق [الفقه الإسلامي وأدلته ط. دار الفكر (٨/ ٢٩٠)].

وإنني أناشد العقلاء من أبناء هذا الوطن المخلصين أن يقفوا مع أنفسهم وقفة تأمل لنعود بعدها صفًّا واحدًا، كما أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم في قوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» [صحيح البخاري ٤٨١]، ونسعى في خدمة الوطن، دون انتماءات حزبية، أو صراعات على كرسي أو منصب.

الكف عن التظاهرات والتوجه للعمل

التوحيد: هل من نصيحة أخيرة للأمة عامة وللمصريين خاصة للخروج من هذا المأزق؟

ج: أنصح الجميع أولاً بتقوى الله، فهي وصية الله للأولين والآخرين، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ»، ثم لزوم الطاعة والعبادة، والتضرع والاستكانة لله تعالى، فالبأساء والضراء إذا أصاب الله بهما بعض العباد فما عليهم إلا العمل بما قال الله تعالى: «فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ٤٣]، ويلزم من ذلك التوبة إلى الله تعالى، والاستقامة على دينه، ولزوم الذكر والاستغفار وقراءة القرآن، وتعمير بيوت الله بالصلاة فيها، ودعاء الله- عز وجل- أن يصلح بلادنا ويوفِّق شبابنا لكل خير، وأتوجه إلى شباب الأمة المصرية خاصة بالكفِّ عن التظاهر هنا وهناك، بل الانخراط في العمل، ونبذ العنف بكل صوره وأشكاله، ونشر ثقافة المحبة والأخوة والعفو والصفح والتجاوز، والعمل بكل ذلك.

التوحيد: من منطلق قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا» [صحيح مسلم ١٧٣٢»، هل من بشرى تزفونها إلى الأمة في هذه الأيام المباركة؟

ج: نحن نتطلع إلى مستقبل واعد إن شاء الله تنهض به الأمة من كبوتها وتعيش حياة مليئة بالأمن والسلام والاستقرار في ظل طاعتها لله تعالى، والسير على منهاج نبيها صلى الله عليه وسلم، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أن مع العسر يسرًا، وقد رأينا ذلك كثيرًا، فمع كل أزمة كانت تأتي الانفراجة من الله عز وجل.

والله ولي التوفيق.

باب التفسير

تفسير سورة غافر

الحلقة السادسة

إعداد/ **د. عبد العظيم بدوي**

قال تعالى: «وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ» [غافر: ٥٨- ٦٨]

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

لا يستويان:

ثم فرق الله سبحانه بين المؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، فقال تعالى: «وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ»: المراد بالأعمى الكافر، والمراد بالبصير المؤمن، كما قال الله تعالى في سورة هود بعد ما ذكر أهل الجنة والنار: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ» [هود: ٣٤]، وقد وصف الله تعالى الكافر بالعمى في

أكثر من آية:

قال تعالى: «أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [الحج: ٤٦].

وإنما كان الكافر أعمى لأن السماء فوقه مرفوعة، والأرض تحته موضوعة، والجبال أمامه منصوبة، وكلها تشهد بأن لا إله إلا الله، ومع ذلك لم ينتفع بهذه الآيات، ولم يستدل بها على فاطر الأرض والسموات، «أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا» [الفرقان: ٤٠].

أما المؤمن فقد فكر في خلق السموات والأرض، وآمن بخالقهن، ورضي به ربا، كما قال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فكما لا يستوي الأعمى والبصير، لا يستوي «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ»، قال تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ» [السجدة: ١٨- ٢٠].

فهذه حقائق ثابتة، ولكن «قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ»:

يقول جل ثناؤه: قليلا ما تتذكرون أيها الناس حجج الله، فتعتبرون وتتعظون. يقول: لو تذكرتم آياته واعتبرتم، لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحيائه من فني من خلقه من بعد الفناء، وإعادتهم لحياتهم من بعد وفاتهم، وعلمتم قبح شرككم من تشركون في عبادة ربكم. [جامع البيان(٢٤/ ٧٨)].

ولما أقام سبحانه وتعالى الأدلة الدالة على إمكان البعث صرح بمجيء الساعة فقال: «إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» فهم يجادلون فيها، ويكذبون بها.

آداب الدعاء:

«وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ»:

«وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، فالإجابة قرينة الدعاء، فإذا كان دعاء فثم إجابة، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكني أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه. [الجواب الكافي لابن القيم].

فإذا أراد الله تعالى أن يعطي عبده ألهمه السؤال، ولذلك لبث أيوب عليه السلام في المرض ثمانية عشرة عاما وشهرا، فلما أراد الله أن يشفيه ألهمه الدعاء فشفاه، قال تعالى: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ» [الأنبياء: ٨٣- ٨٤]، وبلغ زكريا عليه السلام من الكبر عتيا ولم يرزق الولد، فلما أراد الله أن يرزقه ألهمه الدعاء، قال تعالى عن مريم عليها السلام: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ» [آل عمران: ٣٧- ٣٩].

فالإجابة قرينة الدعاء، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ) [صحيح سنن الترمذي للألباني رقم٣٤٧٩]. ولكن لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي، كما قال بعض السلف، فإذا دعوت ولم تر استجابة، فلا تقل قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجاب لي، ولكن ابحث في نفسك عن الموانع، وهي المعاصي، ففي الحديث:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا

ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » [المؤمنون: ٥١]، وَقَال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُل يُطيل السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْه إِلَى السَّمَاء يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ). صحيح مسلم.

ولما أمر الله تعالى بدعائه توعد من لم يدعه، فقال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »:

عَن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِير رضي الله عنه عَن النَّبِيِّ صلى الله علَيه وسلم قَال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»». [صحيح سنن الترمذي للألباني رقم٢٩٦٩].

دلائل التوحيد:

ولما أمر الله تعالى بعبادته، وتوعد المستكبرين، ذكر دلائل استحقاقه للعبادة، فقال:

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا »:

الله الذي يجب أن تعبدوه، مخلصين له الدين، هو الذي جعل لكم الليل سكنا، والنهار مبصرا، هو الذي جعل الليل مظلما باردا،لتسكنوا فيه، وترتاحوا من عناء الكدح بالنهار، وهو الذي جعل لكم النهار ذا شمس وحر وضياء، لتغدوا وتروحوا في طلب معاشكم، وكسب أرزاقكم، وهذا كله من فضله ورحمته بعباده، لعلهم يشكرون، ولذلك قال: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ»، والمراد بالشكر الإسلام، كما قال تعالى في سورة النحل، بعد ما ذكر عباده بنعمه: «كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ » [النحل: ٨١- ٨٣].

«ذَلِكُمُ اللَّهُ» الذي يجب أن تعبدوه وحده لا شريك له، هو «رَبُّكُمْ» الذي رباكم بفضله، «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً » [لقمان: ٢٠]، وهو «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، فغير الله له مخلوق، والمخلوق لا يصلح أن يكون إلها، لأنه عاجز، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها، ولذلك قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ » [الحج: ٧٣]، ثم قال تعالى: « مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ » [الحج: ٧٤] يعني حين عبدوا غيره من خلقه، « أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [النحل: ١٧]، ولذلك قال تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » [الأنعام: ١]، أي يسوون به في العبادة غيره ممن لم يخلق، وهم يعلمون أنهم لا يخلقون، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنهم سيندمون يوم القيامة على هذه التسوية فقال: « فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » [الشعراء: ٩٤- ٩٨].

فانفراد الله تعالى بالخلق دليل على وجوب إفراده بالعبادة، ولذلك قال: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»، فكما لا خالق غيره، يجب ألا يكون معبود سواه، ثم أنكر على العابدين غيره فقال: «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» أي: فأنى تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، وقد جاءتكم البينات من ربكم على أنه لا إله إلا الله، «كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» أي: كما صرف هؤلاء عن دلائل التوحيد مع ظهورها، وصدوا عن السبيل، صرف الذين من قبلهم، ممن كذبوا بآيات ربهم، «جَزَآءً وِفَاقًا» [النبأ: ٢٦]، قال تعالى: « سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: «وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ» [التوبة: ١٢٧].

«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا» أي موضع قرار، مع كونها محاطة بالمياه من كل جانب، فهي في وسط الماء كالقارب الصغير لا يكاد

يثبت، ولكن الله تعالى أرساها بالجبال، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» [الأنبياء: ٣١]. «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً»، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ» [الأنبياء: ٣٢]، «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ»، كما قال تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» [التين: ٤]، «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» في المأكل، والمشرب، والملبس، والمنكح، والمركب.

ثم يؤكد سبحانه على أنه وحده المستحق للعبادة دون سواه، فيقول: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذا السياق في ذكر دلائل التوحيد، والأمر بعبادة الله وحده، أشبه ما يكون بقوله تعالى في سورة البقرة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢١- ٢٢].

فهل يعقل أن يعبد إنسان غير الله بعد كل هذا البيان؟! ولذلك أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه الذين يعبدون غير الله:

«قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي»، والنهي عن الشيء أمر بضده، ولذلك قال: «وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» الذي أراكم آياته البينات الدالات على وجوب إفراده بالعبادة، «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ» [الروم: ٢٠]، ولذلك قال هنا: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، ولا يد للإنسان في خلقه وإيجاده، ولا يد له في موته وفنائه، ولا يد له في الأطوار التي ينتقل فيها فيما بين ذلك.

ومن دلائل التوحيد الإحياء والإماتة: «هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ»، بهذا تعرّف سبحانه إلى خلقه، وبه أيضاً عرّفه الرسل إلى أقوامهم، كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: «قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» [الشعراء: ٧٥- ٨١]، وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ» [البقرة: ٢٥٨]، وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» [الأعراف: ١٥٨]، وقال له أيضا: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [يونس: ١٠٤].

فمن دلائل التوحيد أن الله يحيي ويميت، وهي آية واضحة جلية متكررة، يرونها كل ساعة، فالكفر بالله مع ذلك أمر عجيب، ولذلك قال تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [البقرة: ٢٧- ٢٨].

قال السعدي- رحمه الله-: هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله، الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون، فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه، وتدبيره، وبره، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة؟ بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه. [تيسير الكريم الرحمن(١/ ٦٨)].

وقوله تعالى: «فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» تصريح بقدرته المقتدرة، وأنه سبحانه لا يعجز عن شيء، ولا يعجزه شيء، فإذا أراد شيئًا ما -أي شيء كان- فإنه يقول له: كن فيكون، بلا تأخير، ولا تكرير.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

باب السنة

أيها الحبيب سَلْ عما ينفعك

إعداد/ **د. مرزوق محمد مرزوق**

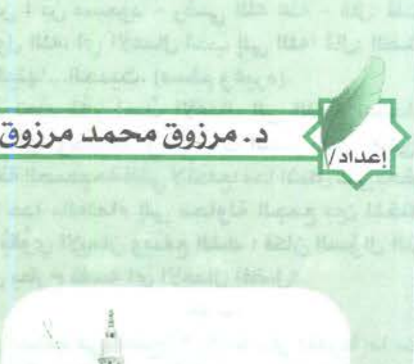

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

قال الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الْعَزِيزِ ابن عبد الله حدثنا إِبْرَاهِيمُ بن سَعْدٍ عن الزُّهْرِيِّ عن سَعِيدِ بنَ الْمُسَيَّبِ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْه قال: سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ قال: « إيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِه، قيل: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: جِهَادٌ في سَبِيلِ اللَّهِ. قيل: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: حَجٌّ مَبْرُورٌ».

أولا: عزو الحديث

١. صحيح البخاري، كتاب الحج / باب فضل الحج المبرور (٢/ ٥٥٣) ط٣/دار ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

٢. صحيح مسلم، كتاب الإيمان/ بَاب بَيَانِ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ(١/ ٨٨)، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣. سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، بَاب مَا جَاءَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ (٤/ ١٨٥)، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون وفيه قال: (الجهاد سنام العمل).

٤. المجتبى من سنن النسائي، كتاب مناسك الحج، فضل الحج (٥/ ١١٣)، ط٢/ مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.

فائدة وبيان:

إن الهدف من تخريج الحديث هو عزوه إلى كتب السنة الأصلية التي أخرجته بسنده بهدف دراسة إسناده ومتنه للوصول للحكم على الحديث وبيان درجته ونوعه (القول الثمين في أصول التخريج للدكتور عماد علي عبد السميع ص١٨-٢٠ بتصرف).

لذا فإن مذهب أهل العلم تجاه الأحاديث التي خرجها البخاري ومسلم وكانت في غيرهما قسمان: أحدهما: يكتفي بالعزو إلى البخاري ومسلم، وحجته أن أحاديث الصحيحين قد اتفق أهل العلم أنها في أعلى درجات الصحة، وبالتالي قد تحقق الهدف من التخريج فلا داعي للعزو إلى غيرهما، وهذا مذهب الأكاديميين من أهل هذا التخصص، وفريق آخر من أهل العلم يرى أن تعدد الكتب التي يعزى إليها الحديث يزيد من ثقة القارئ فيه حتى وإن كان في الصحيحين، لذا - وتوسطا بين المسلكين - فإننا سنكتفي بتخريج الحديث من الكتب الستة، إلا إذا كانت هناك لفظة أو فائدة مستفادة زيادة على ما كان في الكتب الستة فإننا نخرجها معزوة إلى من أخرجها منهم.

ثانيا: رِجال الإسناد

١. عبد العَزِيزِ بن عبد اللهِ: هو ابن عبدالله الأويسي شيخ البخَارِيِ، وثقه أبوعَبدالله الذهبي، وذكره في كتابه « ذكر من تكلم فيه وهو موثق « لأبي عبدالله الذهبي (١٢٢/١)، ط١/مكتبة المنار. وذكره أبو نصر الكلاباذي في كتابه «رجال صحيح البخاري « المسمى «الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد»(٤٧٤/١)، ط١/دار المعرفة.

٢. إبْرَاهِيمُ بن سَعْدٍ: إبراهيم بن سعد سبط عبد الرحمن بن عوف رضيَ الله عنه: ذكره الذهبي ووثقه في (ذكر من تكلم فيه وهو موثق) (٣١/١)، ووثقه غيره من علماء الجرح والتعديل.

٣. الزهري: هو الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، حجة، إمام، واستشهد به مسلم في أحاديث قليلة [ذكر من تكلم فيه وهو موثق للذهبى (١ /١٦٩).

٤. سَعِيدِ بن المُسَيَّبِ: هو ابن المسيب بن حزن المدني إمام التَابعين وفقيه الفقهاء، أبوه وجده صحابيان أسلما يوم فتح مكة ذكره ابن حبان في (الثقات) (٤ /٢٧٣)، ط١/ دار الفكر).

٥. أبو هُرَيْرَةَ: هو عبدالرحمن بن صخر الصحابي الجليل، وقد سبق الكلام عنه في أعداد سابقة، وإن كان غنيًا عن التعريف.

ثالثا: درجة الحديث

في أعلى درجات الصحة كما سبق بيانه، فهو مما اتفق عليه الشيخان؛ البخاري ومسلم.

رابعا: شرح ودراسة الحديث

١. قوله: سئل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: السائل هو أبو ذر رضي الله عنه، قاله القسطلاني في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩٦/٣).

٢. قوله: (أي الأعمال أفضل)؟: أي أكثر ثوابًا. (إرشاد الساري للقسطلاني (٩٦/٣)).

٣. قوله: (إيمان بالله ورسوله): نكر الإيمان ليشعر بالتعظيم والتفخيم أي التصديق المقارن بالإخلاص المستتبع للأعمال الصالحة. [تحفة الأحوذي لأبي العلا محمد بن عبد الرحمن المباركفوري (٢٤٤/٥) ط/ دار الكتب العلمية].

٤. قوله: (قيل: ثم ماذا؟): أي: أي شيء أفضل بعده؟

٥. قوله: (جهاد في سبيل الله): أي قتال الكفار لإعلاء كلمة الله. (إرشاد الساري (٣/ ٩٦))، وفي رواية الترمذي قال: الجهاد سنام العمل، وسنام كل شيء أعلاه (تحفة الأحوذي (٥ / ٢٤٤)).

٦. قوله حج مبرور: أي مقبول ومنه بَرّ حجك، وقيل: المبرور الذي لا يخالطه إثم ولا رياء ولا سمعة، مأخوذ من البرّ أي: الطاعة، ومنه برّ في يمينه أي صدق، ومنه: أبرّ الله قسمه أي: جعله صادقا، وهذه المعاني كلها صحيحة، لأنّ المقبول هو الّذي لا يخالطه إثم ولا رياء فيه وصدق فيه الحاجّ. (الفتح ٧٨/١)

وكلها (أي: الإجابات الثلاثة من النبي صلى الله عليه وسلم) أخبار لمبتدآت محذوفة؛ لأن المقدر المحذوف في الكل هو: (أفضل الأعمال) (انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٣/ ٩٦)) بتصرف.

إشكال وجوابه

الأعمال التي وُصفت بأنها أحب الأعمال إلى الله تعالى كثيرة، ومنها: المداومة على العمل الصالح وإن قلّ، وكثرة السجود لله تعالى، وأن يموت ذاكرًا لله تعالى، والصلوات لمواقيتها، وأدلة ذلك كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر: قوله - صلى الله عليه وسلم-: «وإن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل» [متفقٌ عليه].

وقال ثوبان - رضي الله عنه - لرسول الله: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو بأحب الأعمال إلى الله، فقال: «عليك بكثرة السجود؛...الحديث» [مسلم في الصلاة (ح٤٨٨)].

وعن ا بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الصلوات لمواقيتها...الحديث. (مسلم وغيره).

فقد تعدَّد ذكْر أحبِّ الأعمال إلى الله - سبحانه - وأفضلها وخَيرها، وكذا أحب الناس إليه تعالى، في السُّنَّة الصحيحة التي لا تُدْفَع؛ مما أشكل على بعضهم، وما حدا بالعلماء إلى محاولة الجمع بين المختلفات بما يُقوِّي الإيمان ويَدْفع الشك ؛ فكان السؤال الذي لا يزال يطرح نفسه أي الأعمال أفضل؟

الجواب:

قال الحافظ في الفتح((٩/٢)،ط/دار المعرفة)ما مفاده:

ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، وذلك كما يلي:

١- أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم كل قوم:
بما يحتاجون إليه.
أو بما لهم فيه رغبة.
أو بما هو لائق بهم.

أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال؛ لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها، وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت

مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل.

٢- في الأحاديث الأخرى كحديث ابن مسعود الذي قدم فيه الصلاة ولم يذكر الإيمان لا يمكن أن تكون كلمة «أفضل» على بابها (أي: الفضل المطلق) بل المراد بها من أفضل الأعمال فحذفت من وهي مرادة فلا تعارض حينئذ بين هذه الروايات الأخرى وبين حديثنا الذي بين أيدينا «. اهـ من الفتح.

قلت: و لفظ «خير» و «أحب» «وأفضل» ونحوها كلها مترادفة؛ فإن الأفضل هو الأحب وهو الخير، ولكننا في هذا المقال اقتصرنا على ما جاء أنه الأفضل إلى الله تعالى؛ كيلا يطول الكلام فلا تعارض بين هذه الأحاديث، وبذا تنسجم الشريعة مع نفسها، وهى كذلك والحمد لله.

ما يستفاد من الحديث

١- دلَّ الحديث على أن الإيمان بالله - تعالى - أفضل الأعمال وأعلى الشعَب التي يتقرب بها العبد لله تعالى؛ وذلك لأنه أصل الأعمال فلا تصح إلا به، ولأنه أول واجب على المكلف فلا تقبل منه سائر الأعمال من عمل القلب واللسان والجوارح إلا بتحقق الإيمان (والأدلة على ذلك مستفيضة وليس هذا مجال بسطها). (حاشية السندي على سنن النسائي ج ٨ ص ٩٤)، ط٢/ مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة).

قضية مهمة:

قضية إدخال العمل في مسمى الإيمان هي قضية من أهم القضايا والتي ضل بسبب عدم فهمها كثير من الناس، ولقد منَّ الله على علماء السنة بفهم هذه القضية وشرحها لمن بعدهم لذا بوب البخاري بابًا بعنوان بابُ مَنْ قَالَ: إنَّ الإيمَانَ هُوَ العَمَلُ لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، وقال ابن بطال فيما نقله عنه الإمام بدر الدين العيني في شرحه لصحيح البخاري(١/١٨٦): الآية حجة في أن العمل به ينال درجات الآخرة، وأن الإيمان قول وعمل، يشهد لذلك الحديث المذكور، وأراد به هذا الحديث. ثم قال: وهو مذهب جماعة أهل السنة. قال أبو عبيدة: وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم. ثم قال: وهو مراد البخاري بالتبويب. (عمدة القاري ط/ دار إحياء التراث العربي).

٢- قلت: وفي الحديث بيان فضل الجهاد في سبيل الله، فقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بعد الإيمان، وقد تكاثرت النصوص على عظم منزلته في الدين؛ لأنه السياج الحصين الذي يحمي الدين، ويساهم في نشر الإسلام في المعمورة، يشترط في مشروعيته وتحقق فضله وثوابه أن يكون موافقًا للشرع في الباطن والظاهر عمومًا، وهذا يحتاج إلى تفصيل لا يتسع له المقام، ويرجع فيه إلى كلام أهل الأثبات من أهل العلم.

٣- جعل الجهاد في هذا الحديث أفضل من الحج ؛ لأن ذلك كان في أول الإسلام وقلته، وكان الجهاد فرضا متعينًا على كل أحد، فأما إذ ظهر الإسلام وفشا، وصار الجهاد من فروض الكفاية على من قام به، فالحج حينئذ أفضل ؛ فإن حَلَّ العدو ببلدة واحتيج إلى دفعه، وكان له ظهور وقوة وخيف منه ؛ صار فرض الجهاد على العيان، وكان أفضل من الحج والله أعلم. (شرح صحيح البخاري لابن بطال(٤/١٩٠)،ط٢/ مكتبة الرشد، تحقيق: أبوتميم ياسر إبراهيم).

٤- قلت: وفيه دليل على فضل الحج التام الكامل الخالص من مفسدات العمل ومنقصاته في النية والعمل؛ بحيث يكون الحج مبروراً أي خالصاً لوجه الله، سالمًا من الرفث والفسوق والبطلان.

قال النَّوويّ رحمه الله:» من علامة قبول الحج وكونه مبرورًا أن يرجع خيرًا مما كان ولا يعاود المعاصي» (شرح النووي على صحيح مسلم (٩ / ١١٩) بتصرف.

٥- قلت: أهمية سؤال المرء عما ينفعه كما رأيناه من الصحابة وهم يسألون النبي عما ينفعهم كما هو ظاهر، واقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الثلاث لا يعني الحصر، أي أن هناك أعمالاً فاضلة ولكنه اقتصر هنا على ذكر هذه الثلاث، كما أن ذكر هذه الثلاث لا يعني أنها أفضل الأعمال مُطلقا، بل الأمر كما سبق الجواب عليه في الإشكال السابق ذكره.

(فائدة على المعاني والبيان)

فيه تنكير الإيمان والحج وتعريف الجهاد، وذلك لأن الإيمان والحج لا يتكرر وجوبهما بخلاف الجهاد فإنه قد يتكرر، فالتنوين للإفراد الشخصي، والتعريف للكمال. (عمدة القاري (١ / ١٨٧).

أخيرا: إسقاط على الواقع

هذا السؤال الذي سأله السائل في هذا الحديث للنبي صلى الله عليه وسلم كثر من قبل الصحابة كما رأينا لأنهم يحرصون على ما ينفعهم، و يحذرون من قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (سورة الكهف: ١٠٣- ١٠٤).

فكان انشغالهم بما فيه نجاتهم، كذلك كانوا في سؤالهم للنبي صلى الله عليه وسلم متأدبين بما يجب على السائل أن يتأدب به من حسن السؤال وعدم الإكثار على المفتي، أما عن الذي جاء إلينا من توجيه في هذا الحديث مما ذكر في أفضل الأعمال فهو بالترتيب الإيمان، ثم الجهاد، ثم الحج المبرور،

ولا شك، وكما سبق أن أفضنا أن الأمر لا يقتصر على هذه الثلاث، وأن أفضلية العمل لها ضوابط كثيرة يرجع إلى كل في موضعها، لكننا مع هذا لا نختلف جميعًا أنه مهما كثرت الإجابات التي جاءت إلينا من السنة المطهرة فيما أجيب أنه من أفضل الأعمال لا نختلف أن الإيمان هو الأفضل على الإطلاق لاستفاضة الأدلة على هذا، ولا نختلف جميعا على أن ما ورد ذكره بعد ذلك في حديثنا هذا من جهاد وحج هو من الأعمال العظيمة العالية القدر التي أخبر عنها نبينا أنها من أفضل الأعمال وبشرنا بعظم أجرها، لذا ومن خلال ما استفدناه.

من حديثنا هذا ننصح لأنفسنا وإخواننا بما يلي:

١- الحرص على تعلم الإيمان وتحقيقه، وأنه بوابة الدخول إلى باقي الأعمال وأقصد بالإيمان هنا الإيمان بمعناه الواسع الشامل، أعني معناه العلمي المعروف في علم العقيدة والسالف الإشارة إليه، إضافة إلى معناه التربوي الذي تعلمناه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعن عبد الله بن عمر: يقول عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: « لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرٍ وَأَحَدُنَا يَرَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ » (رواه الطبراني في الأوسط، قال الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة ووافقه الذهبي أنظر: المستدرك على الصحيحين ١/٣٥).

٢- معرفة فضل الجهاد في سبيل الله، وفضل إعلاء الجهاد لكلمة الله، والتغلب على ما لحق بالمسلمين من هزيمة نفسية، وإدراك أن ما لحق بهم هو من كسب أيديهم والله تبارك وتعالى عفا عن كثير.

٣- العلم بأن الجهاد له ضوابط شرعية مهمة جدًا تدرس في مظانها على أيدي العلماء الثقات، فلا يترك الناس أنفسهم فريسة للعواطف تحركهم فيكلفون أنفسهم بما لم يكلفهم الله به فيكون ذلك سببا في إتلافهم وهلاكهم والقضاء على الدعوة إلى الله.

٤- معرفة فضل الحج المبرور زيادة على كونه ركنا من أركان الإسلام.

٥- تتفاوت الأعمال فبعضها أفضل من بعض، فعلى المسلم أن يحرص على ما يطيق من أفضل الأعمال وأكثرها نفعا، وأعظمها أجرا، وعلى ما ينفعه منها، حتى وإن كانت كلها مشروعه فما بالنا بما هو غير مشروع كالتظاهرات التي يضيع الإنسان فيها وقته وربما يتلف نفسه، فعليه أن يعرض عنها بالكلية.

٦- من آداب السؤال أن يختار السائل الوقت المناسب، وأن يقتصر في السؤال على ما يتعلق بالشيء المسئول عنه، وأن يكون بصوت واضح أو بخط واضح إذا كان السؤال مكتوباً، وأن يسأل عما ينفعه، وأن يسأل سؤال طالب للاستفادة، لا سؤال تعنت وتعالم، وأن لا يسأل عن الحوادث التي لم تقع أو هي نادرة الوقوع، وأن لا يكون قصده أن يجيبه الشيخ بما يهواه، بل يحرص أن يكون قصده معرفة الحق، وألا يسأل إلا أهل العلم المعتبرين الموثوق بهم. وإذا كان السؤال عن قول أو فعل فأجاب الشيخ مثلاً بأن هذا العمل بدعة فلا يحل للسائل أن ينزل هذه الفتوى على فلان من الناس فيقول فلان مبتدع؛ لأن المعين قد يقوم به مانع يمنع من إسقاط الحكم عليه.

وفى ذلك يقول ابن القيم رحمه الله – وقد ذكر مراتب العلم، ومنها حسن السؤال -:

« فمن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله، أما لأنه لا يسال بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه، كمن يسأل عن شيء لا يضر جهله به ويدع مالا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الناس، ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيرًا، ولو كان حَسنَ الفهم.

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال: من كان حَسنَ الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشره.

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس، فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له في السؤال فيعزه بالعلم عزًا.

وقال ابن جريج: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. اهـ» انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٦٩).

نسأل الله الكريم بفضله ومنّه وجوده أن يرزقنا وإياكم والمسلمين جميعا حسن الفهم وحسن العمل، وأن يعيننا عليه ويتقبله منا؛ إنه أكرم مسئول وخير مأمول، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

درر البحار من ضعيف الأحاديث القصار

الحلقة الخامسة عشرة

إعداد / **علي حشيش**

١٥٩- «اذكرُوا اللهَ ذكرًا خاملاً، فقيلَ: وما الذكر الخامل؟ قال: الذكر الخفي».

الحديث لا يصح، أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ح١٤٤) قال: أخبرنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب بن صهيب مرفوعًا، وفيه أبو بكر بن أبي مريم، قال الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٣/١٤٦): «كان رديء الحفظ يحدث بالشيء ويتهم فيه حتى استحق الترك فهو عندي ساقط الاحتجاج». وقال أبو زرعة: ضعيف منكر الحديث، كذا في «التهذيب» (١٢/٣٣) ومع هذا الطعن في ابن أبي مريم هناك سقط في الإسناد، حيث إن ضمرة بن حبيب تابعي، قال الحافظ في «التقريب» (١/٣٧٤) من الرابعة، وضمرة رفع الحديث فالحديث مرسل أيضًا. «ومرسل ما بعد تابع سقط».

١٦٠- «من أكثر ذكر الله فقد برئَ من النفاقِ».

الحديث لا يصح، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (ح٦٩٢٧) وفي «الصغير» (٢/٧٧) عن شيخه محمد بن سهل بن المهاجر الرقي عن مؤمل بن إسماعيل من حديث أبي هريرة، قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن حماد إلا مؤمل بن إسماعيل، قال الذهبي في «الميزان» (٣/٥٧٦، ٧٦٥٤): محمد بن سهل عن مؤمل بن إسماعيل راوٍ للموضوعات، وأقره الحافظ في «اللسان» (٥/٢٢٠) (٦٧٦/٧٤٦١).

١٦١- «آخر الدواء الكي».

الحديث لا أصل له، أورده السخاوي في «المقاصد» (ح١)، وأورده العامري في «الجد الحثيث» (ح١) وقال: ليس بحديث.

١٦٢- «اتقوا مواضع التهم».

الحديث لا أصل له. ذكره الغزالي في «الإحياء» (٣/٣٥) مرفوعًا، وقال الإمام الذهبي في «تخريج الإحياء»: «لم أجد له أصلاً».

قلت: ويغني عنه الحديث المتفق عليه في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه». الحديث أخرجه البخاري (ح٥٢)، ومسلم (ح١٥٩٩).

١٦٣- «ألسنةُ الخلقِ أقلامُ الحقِّ».

الحديث لا أصل له، أورده السخاوي في «المقاصد» (ح١٦٤) وقال: «لا أصل له».

١٦٤- «ليس على الرجل جناح أن يتزوج بقليل أو كثير من ماله إذا تراضوا وأشهدوا».

الحديث لا يصح: أخرجه البيهقي في «السنن» (٧/٢٣٩) عن أبي سعيد مرفوعًا، وآفته أبو هارون

العبدي عمارة بن جوين متروك ومتهم من كذبه، كذا قال الحافظ في «التقريب» (٤٩/٢) وبين أنه شيعي.

١٦٥- «إذا وقعت كبيرة، أو هاجت ريح مظلمة فعليكم بالتكبير فإنه يجلي العجاج الأسود».

الحديث لا يصح، أخرجه أبو يعلى في «المسند» (٤٥٠/٣) (ح١٩٤٧)، وابن السني في «عمل اليوم» (ح٣٧٩)، وابن حبان في «المجروحين» (١٧٩/٢) من حديث جابر مرفوعًا، وفيه محمد بن زاذان قال البخاري في «الضعفاء الصغير» (٣١٩): «منكر الحديث لا يكتب حديثه والراوي عنه عنبسة بن عبد الرحمن الأموي شر منه قال البخاري (٢٨٧) تركوه» وقال الأزدي: كذاب.

١٦٦- «أيما نائحة ماتت قبل أن تتوب ألبسها الله سربالاً من نار، وأقامها للناس يوم القيامة».

الحديث لا يصح، أخرجه أبو يعلى في «المسند» (٤٠٠/١٠) (ح٦٠٠٥) وابن حبان في المجروحين (١٨٦/٢) من حديث عبيس بن ميمون عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا وآفته عبيس قال ابن حبان: كان شيخًا مغفلاً يروي عن الثقات الأشياء الموضوعات توهمًا لا تعمدًا، فإذا سمعها أهل العلم سبق إلى قلوبهم أنه كان المعتمد لها.

١٦٧- «الرزق مقسوم وهو آتٍ ابن آدم على أي سيرةٍ سارها ليس تقوى تقيٍّ بزائد له، ولا فجور فاجر بناقصه، وبينه وبينه ستر وهو طالبه».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١٣٣/٣) من حديث يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبابة عن شقيق عن ابن مسعود مرفوعًا، وآفته يوسف بن السعر قال ابن حبان: كان كاتب الأوزاعي وكان ممن يروي عن الأوزاعي ما ليس من أحاديث من المناكير التي لا يشك عوام أصحاب أنها موضوعة لا يحل الاحتجاج به بحال»، وأورد هذا الحديث الإمام الذهبي في «الميزان» (٩٨٧١/٤٦٦/٤) وجعله من مناكيره ونقل عن الدارقطني أنه «متروك كذاب».

١٦٨- «من أتى الجمعة فليغتسل فإنه كفارةٌ من الجمعةِ إلى الجمعةِ».

الحديث لا يصح: أخرجه الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (١٥٧/٢) من حديث عبد الأعلى بن أبي مساور عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا وآفته ابن أبي مساور قال ابن حبان: «كان ممن يروي عن الأثبات ما لا يشبه حديث الثقات حتى إذا سمعها المبتدئ في هذه الصناعة علم أنها معمولة».

قلت: قصر الكفارة من الجمعة إلى الجمعة على الغسل وحده من وضع ابن أبي المساور، حيث إن المغفرة من الجمعة إلى الجمعة تلك البشرى مبنية على أمور كما هي ثابتة في صحيح الإمام البخاري (ح٨٨٣)، (٩١٠)، من حديث سلمان الفارسي قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يغتسل رجلٌ يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يُفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب الله له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى». وكذلك أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤٣٨/٥) (ح٢٣٧٦١).

باب التراجم

السابق إلى الإسلام: سعيد بن زيد رضي الله عنه

إعداد / صلاح نجيب الدق

الحمدُ لله الذي خَلَقَ السموات والأرض، ولم يكن له شريكٌ في الملك، وخَلَقَ كلَّ شيء فقدره تقديراً، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي بعثه ربه هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً.

أما بعد: فإن سعيد بن زيد رضي الله عنه هو أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو أحد أصحاب نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين مدحهم الله تعالى في كتابه العزيز قائلاً: (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (الحديد: ١٠)، فأحببت أن أُذَكِّرَ نفسي وإخواني الكرام بشيء من سيرته العطرة. فأقول وبالله التوفيق:

اسمه ونسبه:

هو: سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل بن عبد العُزى بن رياح بن عَدي بن كعب بن لُؤي، ويُكنى أبا الأعْوَر.

أمه: فاطمة بنت بعجة بن أمية بن خويلد بن خالد من خزاعة. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص٢٨٩ - ٢٩٠).

وسعيد بن زيد رضي الله عنه ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يجتمعان في نُفيل، وكان صهر عمر، زوج أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت أخته عاتكة بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب، تزوجها عمر بعد أن قُتل عنها عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم. (أسد الغابة لابن الأثير ج٢ص٢٥٣).

أولاد سعيد بن زيد:

رزق اللهُ تعالى سعيد بن زيد رضي الله عنه من الأولاد بأربعة وثلاثين: من

الذكور: أربع عشرة، ومن الإناث: عشرون. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص٢٩٢)

إسلام سعيد بن زيد:

عن يزيد بن رومانٍ قال: أَسْلَمَ سعيدُ بن زيد بن عمرو بن نُفيل قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وقبل أن يدعو فيها. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص٢٩٢).

هجرة سعيد بن زيد:

هاجر سعيدُ بن زيد رضي الله عنه إلى المدينة، وآخى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين أبي بن كعب. (أسد الغابة لابن الأثير ج٢ص٢٥٣).

علم سعيد بن زيد:

روى سعيد بنٍ زيد رضي الله عنه ثمانية وأربعين حديثاً، اتفق له الشيخانِ على حديثين، وانفرد البخاري بثالث. روِي عن سعيدَ بن زيد عبدُ الله بن عمر، وأبو الطُفَيْل، وعمرو بن حُرَيث، وزر بن حُبيش، وأبو عثمان النهدي، وعروة بن الَزبير، وعبد الله بن ظالم، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وطائفة. (سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ص١٢٥ و١٤٣).

جهاد سعيد بن زيد:

لم يشهد سعيد بن زيد رضي الله عنه بدراً لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله مع طلحة بن عبيد الله في مهمة عسكرية، قبل غزوة بدر.

عن حارثة الأنصاري: لما تحين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصول عير قريش من الشام بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسبان خبر العير، فخرجا حتى بلغا الحوراء فلم يزالا مقيمين هناك حتى مرت بهما العير، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر قبل رجوع طلحة وسعِيد إليه فندب أصحابه وخرج يريد العير فسارت عير قريش نحوَ الساحلِ، وأسرعت وساروا الليل والنهار فرقاً (خوفاً) من الطلبة، وخرج طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يريدان المدينة ليخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر العير ولم يعلما بخروجه فقدما المدينة في اليوم الذي لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفير من قريش ببدر فخرجا منِ المدينة يعترضان رسول الله فلقياه منصرفاً من بدر فلم يشهد طلحة وسعيد الوقعة وضرب لهما رسول الله بسهامهما وأجورهما في بدر فكانا كمن شهدها. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص٢٩٢:٢٩٣).

وقد شهد سعيدُ بن زيد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد معركة اليرموك، وفتح دمشق. (الإصابة لابن حجر العسقلاني ج٢ص٤٤).

مناقب سعيد بن زيد:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ. (صحيح سنن الترمذي للألبانَي حديث ٢٩٤٦).

استجابة دعوة سعيد بن زيد:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرو بْنِ نُفَيْلٍ أَنَّ أَرْوَى بنت أويس خَاصَمَتْهُ فِي بَعْضِ دَارِهِ فَقَالَ: دَعُوهَا وَإِيَّاهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنْ الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّه طُوِّقَهُ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا. قَالَ: فَرَأَيْتُهَا عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدُرَ، تَقُولُ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بِئْرٍ فِي الدَّارِ فَوَقَعَتْ فِيهَا، فَكَانَتْ قَبْرَهَا. (مسلم حديث ١٣٨).

لماذا لم يكن سعيد بن زيد من أصحاب الشورى؟

قال الذهبي: لم يكن سعيد بن زيد متأخراً عن رتبة أهل الشورى في السابقة والجلالة،

وإنما تركه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لئلا يبقى له فيه شائبة حظ؛ لأنه زوج أخته فاطمة، وابن عمه، ولو ذكره عمر في أهل الشورى لقال الرافضي: حابى ابن عمه. فأخرج عمر منها ولده وعصبته. فكذلك فليكن العمل لله. (سير أعلام النبلاء للذهبي ج١ص١٣٨).

والد سعيد بن زيد على دِين إبراهيم عليه السلام:

كان زيد بن عمرو بن نُفيل (والد سعيد) يعبد اللهَ تعالى على دين إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١)عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ(اسم مكان) قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُفْرَةٌ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلَا آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ. إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ. (البخاري: حديث: ٣٨٢٦).

(٢)عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنْ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنْ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ، فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟، قَالَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ.

فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنْ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ فقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ. قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ قَالَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ. فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام خَرَجَ فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ. البخاري:ح٣٨٢٧.

(٣) قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْد: كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ (بن عروة بن الزبير) عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، يَقُولُ: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي، وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا. (البخاري: حديث:٣٨٢٣).

وفاة سعيد بن زيد:

تُوفي سعيد بن زيد رضي الله عنه بالعقيق (مكان قريب من المدينة) وغسَّله سعد بن أبي وقاص، ثم حُمل على رقاب الرجال فدفن بالمدينة، ونزل في حفرته سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وذلك سنة خمسين أو إحدى وخمسين من الهجرة. وكان سعيد يوم مات ابن بضع وسبعين سنة. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص٢٩٤).

رَحِمَ اللهُ سعيدَ بن زيد رحمةً واسعةً، وجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء. ونسأل الله تعالى أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى من الجنة. وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

منبر الحرمين

عبودية الكائنات لله رب العالمين

إعداد/ **الشيخ عبدالمحسن بن محمد القاسم**
إمام المسجد النبوي في المدينة المنورة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فاتقوا الله -عباد الله- حقَ التقوى؛ فمن اتَقى ربَه ارتقَى درجات، وطابَ مآلُه بعد الممات.

لله سبحانه الجمال والكمال والعظمة:

أيها المسلمون: اتَصف الله تعالى بصفات الكمال والجمال، وتنزَه من كل عيب ونقص، هو غنيٌ عما سِواه من المخلوقات وهيَ مُفتقرةٌ إليه، قال -سبحانه-: (إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ) [إبراهيم: ٨].

ذو الجلال والكبرياء، ذلَ له كل شيء وأسلمَ طوعًا وكرهًا، استسلمَ له المؤمنُ بقلبه وظاهره، والكافرُ مُستسلمٌ له كرهًا بالتسخير والقهر، قال -عز وجل-: (وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [آل عمران: ٨٣].

دانَ الجميعُ لله، فمن في السماوات والأرض والطير كلُها تُصلي لله وتعبُد بحسب حالها اللائق بها، قال -عز وجل-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ) [النور: ٤١].

وتدخلُ الملائكة كل يوم البيتَ المعمور في السماء تُصلي فيه لله، قال -عليه الصلاة والسلام- في حديث الإسراء: "فرُفِع لي البيتُ المعمور، فسألتُ جبريلَ، فقال: هذا البيتُ المعمورُ يُصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملَك إذا خرَجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم". متفق عليه.

سجود المخلوقات لرب الأرض والسماوات:

وجميعُ الكائنات تسجُد خاضعةً ذليلةً لله، قال -عز وجل-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ) [الحج: ١٨].

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: "ولا يجبُ أن يكون سجود كل شيءٍ مثلَ سجود الإنسان".

والدوابُ والملائكةُ تسجُد خوفًا من الله، قال تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [النحل: ٤٩، ٥٠].

والشمسُ تذهبُ كل يوم تحت العرش وتسجُد لله، قال -عليه الصلاة والسلام- لأبي ذر حين غربَت الشمسُ: "أتدري أين تذهب؟!". قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنَها تذهبُ حتى تسجُد تحت العرش". متفق عليه.

قال ابن العربي -رحمه الله-: "ولا مانعَ من قُدرة الله أن يُمكن كل شيءٍ من الحيوان والجمادات أن يسجُد له".

بل كلُ ما له ظلٌ في الكون يسجُد لله، قال -سبحانه-: (أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ) [النحل: ٤٨].

ومع صلاة المخلوقات لله وسُجودهم له فإنهم يُسبحونه، قال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) [الإسراء: ٤٤].

والرعد يُسبح بحمده وجلاً منه، والنملُ يُقدسُ الله ويُنزهُه عن الشريك والمثيل، قال -عليه الصلاة والسلام-: "قرصَت نملةٌ نبيًا من الأنبياء، فأمرَ بقرية النمل فأُحرقَت، فأوحَى الله إليه: أن قرصَتك نملةٌ أحرقتَ أمةً من الأمم تُسبح؟!". متفق عليه.

والنباتُ يُسبح الله وحده، قال ابن القيم -رحمه الله-: "فتباركَ الله ربُ العالمين الذي يعلمُ مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرجُ منها ورقةٌ إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدَها العبادُ على كثرتها وتنوُعها وهي تُسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من

جمالِها أمرًا آخر، ولرأوا خلقتَها بعينٍ أخرى، ولعلموا أنها لشأنٍ عظيم خُلقت".

وكان الصحابةُ -رضي الله عنهم- وهم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- يسمَعون تسبيحَ الطعام، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "ولقد كنا نسمعُ تسبيحَ الطعام وهو يُؤكَل". رواه البخاري.

نماذج من عبودية الكائنات لله تعالى:

وكلُ ذرَة في الكون تُوحدُ الله، قال تعالى: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) [الإسراء: ٤٤].

قال ابن كثير -رحمه الله-: "وهذا عامٌ في الحيوانات والجمادات والنباتات".

وكيفيةُ التسبيح لا يعلمُها إلا الله، قال -عز وجل-: (وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) [الإسراء: ٤٤].

ومع تسبيح الحجارة لله تهبط من علوها خشيةً لله خاضعةً مُنكسرةً له، قال -عز وجل-: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [البقرة: ٧٤].

والسماءُ والأرضُ مُطيعةٌ لله مُمتثلةٌ أمَره، قال لهما: استجيبَا لأمري طائعتَين أو مُكرهتَين (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت: ١١].

ولما عُرض عليها وعلى الجبال حملُ الأمانة التي هي التكاليفُ الشرعية ولهنَ ثوابٌ إن فعلن ذلك، وإن لم يقُمن بها فعليهنَ العقاب، أبَيْن حملَها خوفًا ألا يقُمنَ بما حُملنَهنَ لا عِصيانًا لربهنَ.

وجماداتٌ تحبُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانت تُسلم عليه في حياته، قال -عليه الصلاة والسلام-: "إني لأعرفُ حجرًا بمكة كان يُسلم عليَ قبل أن أُبعَث، إني لأعرفه الآن". رواه مسلم.

وجذعُ نخلة فارقَه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فحنَ له الجذعُ وبكى؛ قال جابرُ -رضي الله عنه-: "كان المسجدُ مسقوفًا على جُذوعٍ من نخل، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا خطبَ يقُومُ إلى جذعٍ منها، فلما صُنع له المنبر وكان عليه -أي: وتركَ الجذع-. قال: سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوتِ العشار -أي: النُوق الحوامل- حتى جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فوضعَ يدَه عليها فسكنت". رواه البخاري.

وكان الحسنُ البصريُ -رحمه الله- إذا حدَث بهذا الحديث يقول: "يا معشر المسلمين: الخشبةُ تحنُ إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شوقًا إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه".

واتَباعُ هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- من غير غلوٍ ولا تفريطٍ من صدقِ محبَته.

وصخرةٌ تحركَت حين صعِد عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأكابرُ صحابته، قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- على حراء -جبل بمكة- هو وأبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌ وطلحةُ والزُبير، فتحرَكت الصَخرةُ، فقال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "اهدأ فما عليك إلا نبيٌ أو صديقٌ أو شهيدٌ". رواه مسلم.

بل اهتزَ جبلٌ بأكمله لما صعدَه النبي -صلى الله عليه وسلم- مع خلفاء راشدين، قال أنسُ -رضي الله عنه-: صعِد النبي -صلى الله عليه وسلم- أُحُدًا ومعه أبو بكر وعُمر وعُثمان، فرجَف بهم، فضربَه برجله، قال: "اثبُت أُحُد، فما عليك إلا نبيٌ أو صديقٌ أو شهيدان". رواه البخاري.

قال ابن المُنير -رحمه الله-: "وهذه هزَةُ الطرَب، ولهذا نصَ على مقام النبُوَة والصديقيَة والشهادة التي تُوجبُ سُرورَ ما اتَصلت به".

ومن أطاعَ الله ورسولَه وهو مؤمنٌ فإن جبلَ أُحُد يُحبُه، قال -عليه الصلاة والسلام-: "أُحُد جبلٌ يُحبُنا ونُحبُه". رواه البخاري.

قال النووي -رحمه الله-: "أُحُدُ يُحبُنا حقيقةً، جعلَ الله تعالى فيه تمييزًا يحب به".

وكان عند آل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيوانٌ وحشيٌ إذا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- بيتَه لم يتحرَك الحيوان لئلا يُؤذي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: "كان لآل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحش، فإذا خرجَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- لعبَ واشتدَ وأقبلَ وأدبرَ، فإذا أحسَ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد دخل ربضَ -أي: جلسَ- فلم يترمرَم -أي: لم يتحرَك- ما دامَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- في البيت كراهيةَ أن يُؤذيَه". رواه أحمد.

وجميعُ المخلوقات سوى العاصي من الثَقلين يعلمُ أن محمدًا رسول الله، قال جابرٌ -رضي الله عنه-: أقبلنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجَار، إذا فيه جملٌ لا يدخلُ الحائطَ أحدٌ إلا شدَ عليه -أي: هاجَ عليه-.

فذكروا ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء حتى أتى الحائط، فدعا البعيرَ فجاء واضعًا مشفره -وهي كالشَفَة من الإنسان-، وضعَ مشفَره إلى الأرض حتى بركَ بين يدي النبي -صلى الله

عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "هاتُوا خطامَه"، فخطمَه ودفعَه إلى صاحبه، ثم التفتَ النَبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس وقال: "إنه ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا يعلمُ أني رسول الله إلا عاصِي الجن والإنس". رواه أحمد.

ومن كان من علماء الإسلام فإن مَنْ في السماوات والأرض والحِيتان تدعُو له بالمغفرة، قال -عليه الصلاة والسلام-: "وإن العالِم ليستغفرُ له من في السماوات ومن في الأرض، والحِيتان في جوف الماء". رواه أبو داود.

والشجرُ والحجر يُوالِي المُؤمنين وينصُرُهم، قال -عليه الصلاة والسلام-: "" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ الله هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ "[صحيح مسلم ٤/ ٢٢٣٩]".

ومنا ما يُلبي بتلبيَة المُسلم، قال -عليه الصلاة والسلام-: "مَا من مُسلم يُلبي -أي: في الحج أو العُمرة- إلا لبَى من عنً يميَنه أو عن شمِاله من حجرٍ أو شجر أو مَدَر -أي: طين- حتى تنقطِع الأرضُ من ها هنا وها هُنا". رواه الترمذي.

وتبكِي السماءُ والأرضُ حُزنا على فراق المؤمن، قال -سبحانه- عن قوم فرعون: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ) [الدخان: ٢٩].

قال ابن عباس -رضي الله عنه-: "إذا فقدَ المؤمنُ مُصلاَه من الأرض التي كان يُصلِي فيها ويذكُر الله فيها بكَت عليه السماءُ والأرضُ".

تأذي المخلوقات من العصاة:

وأما العُصاةُ فإن المخلوقات تتأذَى منهم، وإذا ماتوا استراحَت منهم؛ مُرَ على النبي -صلى الله عليه وسلم- بجنازة فقال: "مُستريحٌ ومُستراحٌ منه". قالوا: يا رسولَ الله: ما المُستريحُ والمُستراحُ منه؟! قال: "العبدُ المؤمنُ يستريحُ من نصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه البلاد والعباد والشجرُ والدوابُ". متفق عليه.

والشرك بالله أعظمُ الذنوب، وإذا سمعَت الجمادات شركًا به تعالى فزعَت عظمةً لله لانتقاص حقه في الألوهية، قال -سبحانه-: (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا) [مريم: ٨٨- ٩٠].

قال ابن كثير -رحمه الله-: "أي: يكادُ يكونُ ذلك عند سماعِهنَ هذه المقالة من فجَرة بني آدم إعظامًا للرب وإجلالاً؛ لأنهم مخلوقاتٌ ومُؤسَساتٌ على توحَيده".

ونطقَ طائرٌ بالإنكار على المُشركين من بني آدم لشِركهم بالله، ودعاهم إلى التوحيد، قال الهُدهُد لسليمان -عليه السلام-: (وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) [النمل: ٢٢- ٢٥].

ولما كان الهُدهُد داعيًا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له؛ "نُهي عن قتله". رواه أحمد.

أيها المسلمون: فالكلُ من الملائكة والجمادات والنباتات والحيوانات نطقَ بتنزيه الله وتوحيده، وسجدَ لله وأطاعَه، وحقيقٌ ببني آدم أن يكون كذلك.

وإذا حقَق الإنسانُ العبوديةَ كان أشرفَ المخلوقات، ومن أشرك به كانت الدوابُ أتمَ منه، قال -سبحانه-: (أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) [الأعراف: ١٧٩].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الزمر: ٦٧].

أيها المسلمون: المخلوقاتُ ذليلةٌ لله قانتةٌ له، ويحرُم أن يُدعَى شيءٌ منها من دون الله، قال -سبحانه-: (لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [فصلت: ٣٧].

ومع قُنوتها لله فهي مُسخَرةٌ لنا لنستعينَ بها على طاعته، قال -عز وجل-: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) [الجاثية: ١٣].

ومن أطاعَ ربَه رفعَه الله وأعلى مكانته.

ثم اعلموا أن الله أمرَكم بالصلاة والسلام على نبيه، فقال في مُحكَم التنزيل: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِ وسلِم وزد وبارك على نبينا محمد، وارضَ اللهم عن خلَفائه الراشدين الذَين قضَوا بالحق وبه كانوا يعدِلون: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعلي، وعن سائر الصحابةِ أجمعين، وعنا معهم بجُودك وكرمِك يا أكرم الأكرمين.

الحج .. عنوان العبودية

إعداد/ **أسامة سليمان**

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

فإن الحج من أظهر عبادات الإسلام التي تتجلى فيها العبودية والطاعة لرب العالمين، فضلاً عن التأسي بخير الأنبياء إمام المرسلين، فمنذ أن يدخل الحاجّ في النسك بإحرامه من ميقات بلده وهو في طاعة مطلقة لله رب العالمين، فيتجرد من ثيابه، ويتجنب محظورات الإحرام، ويطوف بحَجَر، ويقبّل حجرًا، ويرجم حجرًا، ويثبت في موضع، ويسعى في آخر، ويقوم في ثالث، ويراعي أوقات المناسك، فضلاً عن إسالة الدماء دماء النسك، ودماء الجبران في حال مخالفته، كل ذلك يشير إلى طاعته لربه واتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم.

إن الحج من أهم محاضن التقوى ومدارس العبودية، تتقلب فيه النفس بين مقامات العبودية ومنازل الخضوع والانكسار بين يدي العزيز الغفار، وإليك أخي بعضًا من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم في حجته؛ حيث كان أعبد الناس لربه وأكثرهم تعلقا وصلة برب العالمين.

١ - تحقيق التوحيد الخالص:

يُعد التوحيد من أهم القضايا التي اعتنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته، بل جعل شعار الحج متضمنًا إفراد الله عز وجل بالعبادة، ففي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أهل بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. رواه مسلم.

ومن ذلك أيضًا تحقيق معنى التوحيد العلمي والعملي في ركعتي الطواف بقراءة سورتي الكافرون والإخلاص، ودعاؤه على الصفا والمروة بالتوحيد، ففي حديث جابر أيضًا أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحَّد الله وكبَّره، وقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، حتى أتى المروة ففعل مثل ما فعل على الصفا.

ومنها دعاؤه علي عرفة بالتوحيد، كما جاء في الحديث: «خَيْرُ الدُّعَاء دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». [رواه الترمذي، وحسنه الألباني]. بل كان أكثر دعاؤه على عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له..

فحريٌ بك أخي الحاج أن تحقق التوحيد في نفسك وتقدمه على جميع الأركان العملية؛ لأنه شرط قبول الأعمال، قال الله سبحانه: « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » [الزمر: ٦٥].

٢ - تعظيم شعائر الله:

ويقصد بالشعائر جميع ما أمر الله به، ونهى عنه كما قال عطاء. وقال الحسن: الشعائر هي دين الله كله. [القرطبي: ٧/٣٧، ١٢/١٨٠].

وتعظيم الشعائر هو ركن التقوى، وشرط العبودية، وطريق العبد لنيل الثواب وتحصيل الخير من رب الأرباب، يقول سبحانه: « ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ » [الحج: ٣٠]، وقال صلى الله عليه وسلم: «اتق المحارم تكن أعبد الناس». [رواه الترمذي، وحسنه الألباني].

ومن مظاهر تعظيمه صلى الله عليه وسلم للشعائر في حجته: اغتساله للإحرام، وتطييبه بعد الغسل، وسوقه للهدي من ذي الحليفة، وتقليده لها، ورفع صوته بالتلبية حتى رمي جمرة العقبة، وإتيانه الحجر الأسود وتقبيله، واستلامه للركن اليماني، وصلاته خلف المقام، وقيامه بالمشعر الحرام، وتطيبه لزيارة البيت يوم النحر بعد حله الأول، فضلاً عن تعظيمه لزمان النسك ومكانه.

فاحرص أخي الحاج على التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في تعظيم الشعائر وعدم

مخالفة حدود الله وحرماته، قال الله سبحانه: «فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ» [البقرة: ١٩٧]، وقال عز وجل: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» [الحج: ٢٥].

٣- إظهار البراءة من المشركين ومخالفتهم:

فالإسلام والشرك ضدان لا يجتمعان كالليل والنهار والشمس والقمر، ولذا كان أول أمر قام به النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة تحطيم أصنام الشرك، وهو يردد: «وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا» [الإسراء: ٨١]. وأبى أن يطوف بالكعبة إلا بعد إخراج تلك الأصنام منها، بل أرسل الصديق قبل حجته ليعلن في الناس أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. رواه البخاري ح ٤١٠٥.

وحرص صلى الله عليه وسلم في حجته على مخالفة المشركين وإظهار تلك المخالفة بالقول والفعل، ففي عرفة قال: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ» رواه مسلم، وأفاض من عرفة بعد غروب الشمس مخالفةً لأهل الشرك، وكذا من مزدلفة قبل طلوع الشمس، ففي حديث المسور بن مخرمة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ: فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من هاهنا عند غروب الشمس، فهدينا مخالف لهديهم. [صحيح البخاري].

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لزوجته عائشة رضي الله عنها بالاعتمار بعد الحج مخالفة لهدي المشركين الذي كانوا يرون عدم حل العمرة بعد الحج إلا إذا دخل صفر، وكانوا يقولون: «إِذَا عَفَا الْوَبَرْ، وَبَرَأَ الدَّبَرْ، وَدَخَلَ صَفَرْ، فَقَدْ حَلَّتْ الْعُمْرَةُ لِمَنْ اعْتَمَرْ» [رواه أبو داود]. وهم القائلون: إن العمرة في شهر الحج من أفجر الفجور، ولذا أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتمتع بالعمرة إلى الحج؛ مخالفةً لهدي المشركين، قال ابن القيم رحمه الله: «قد استقرت الشريعة لا سيما في المناسك على قصد مخالفة المشركين». [حاشية ابن القيم على سنن أبي داود: ١٦٦/٥].

٤- كثرة التضرع والمناجاة والدعاء:

لأن الدعاء هو العبادة، وفيه إظهار التذلل والافتقار والاستكانة، كان صلى الله عليه وسلم يحرص عليه في نسكه، فقد كان يدعو الله في جميع مواقفه، فقد دعا الله في الطواف، وعند السعي بين الصفا والمروة، وأطال الدعاء على عرفة، وابتهل حتى سقط خطام ناقته من يده، وأتى مزدلفة عند المشعر الحرام وأطال في الدعاء والمناجاة، وكذا في أيام التشريق بعد رمي الجمار، كان يقوم طويلاً يدعو ويرفع يديه... [راجع: زاد المعاد ٢٨٥/١].

٥- الغضب لله والتوقف عند حدوده:

فإن غضب العبد لله والتوقف عند الحدود غاية التقوى، ودليل صدق الإيمان وعلامة كمال العبودية، وقد كان صلى الله عليه وسلم أتقى الناس لربه وأغضبهم له وأعلمهم لحدوده، ويتجلى ذلك من غضبه. حينما تأخر البعض من التحلل بعد أمره لهم بالتمتع، وبيان أنه تمنى التمتع معهم لولا أنه ساق الهدي، ومن ذلك قوله لصفية زوجته: «وما أراها إلا حابستكم، لما علم بحيضتها».

فاحذر أخي الحاج من مخالفة الهدي ومجاوزة الحدود، قال الله سبحانه: «فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور: ٦٣]، فما استطعت أن تفعل من المأمور وتجتنب الفعل من المحظور ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عن شيء فانتهوا» رواه البخاري.

٦- الاستكثار من الخير ومباشرته:

إن الله عز وجل حث عباده على التزود من التقوى، والتسابق في الخيرات، فقال سبحانه: «وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ» [البقرة: ١٩٧]، وقال سبحانه: «وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» [آل عمران: ١٣٣].

وقد كان صلى الله عليه وسلم في حجته أسرع الناس إلى الطاعة، وأحرصهم على التزود من التقوى والعمل الصالح، ومن ذلك إهداؤه صلى الله عليه وسلم لربه مائة بدنة كما في صحيح البخاري ح١٧١٨، مع أنه كان يكفيه سبع بدنة أو واحدة من الغنم، لكنه تقرب إلى الله رب العباد القائل: ولا يزال: عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. رواه البخاري.

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك. وارزقنا حج بيتك يا كريم. والله من وراء القصد.

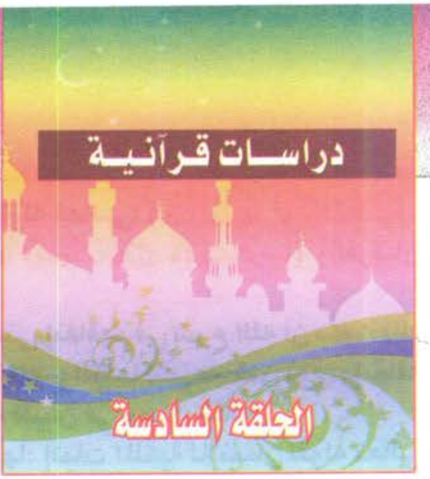

الأمثال في القرآن

إعداد/ **مصطفى البصراتي**

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من أمثال القرآن وهو من سورة البقرة الآية مئتان وستون وواحد، وهي قوله تعالى:

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:٢٦١).

التفسير المجمل

هذا المثل ضربه الله تعالى لبيان ما للمُنفق من الأجر العظيم، الذي يبدأ من مضاعفته من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف، كمثل حبة زرعت فأنبتت سبع سنابل (فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ) فتكون الحبة الواحدة أنتجت سبعمائة حبة.

كل هذا الخير أُعد للمُنفِق شرط أن يبتغي به وجه الله سبحانه وتعالى وأن يخلص في صدقته.

وثواب الإنفاق يتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه، وبحسب طيب المُنفَق وزكاته. وعلى المنفق في سبيل الله أن يتجرد من حالات الإنفاقَ التي تؤذيه، وتعرضه لغضب الله ولبطلان الأجر والثواب، كالذي لا يعطي ماله إلا بالربا، أو ينفقه كارهًا أو مرائيًا أو يُتبع ما يُنفِق منا وأذى، أو يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد.

إن هذا المثل الرباني هو صورة حية لمشهد المزرعة الواهبة الطيبة للأرض الزكية، والمُنفِق ماله الطيب هو المزارع الرابح في الدنيا والآخرة (تفسير آيات الأمثال - لسمير الجميلي)

التفسير المفصل:

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في التفسير:(الإنفاق) معناه البذل، و(أموال) جمع مال، وهو كل ما يتموله الإنسان من أعيان، او منافع، الأعيان كالدراهم، والدنانير، والسيارات، والدور، وما أشبه ذلك، والمنافع كمنافع العين المستأجرة فإن المستأجر مالك للمنفعة.

وقوله تعالى: (في سبيل الله) سبيل: بمعنى طريق، وسبيل الله سبحانه وتعالى هو شرعه، لأنه يهدي إليه، ويوصل إليه، قال تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) [الأنعام ١٥٣] وأضيف إلي الله لسببين:

السبب الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده وشرعه لهم

السبب الثاني: أنه مُوصِلٌ إليه، ويضاف (السبيل) أحيانًا إلى سالك السبيل، فيقال: سبيل المؤمنين، كما قال الله تعالى: (وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) [النساء ١١٥] ولا تناقض بينهما، لأنه يضاف إلى المؤمنين باعتبار أنهم هم الذين سلكوه، وإلى الله باعتبار أنه الذي شرعه، وأنه مُوصلٌ إليه.

قوله تعالى: (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) قال ابن كثير(٤١٣/١): وهذا المَثل أبلغ في

النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.

قوله تعالى: (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء). قال صديق حسن خان في فتح البيان: يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد فيزيد عليه أضعافه لمن يشاء لا لكل الناس، وهذا هو الراجح، وقد ورد في القرآن بأن الحسنة بعشر أمثالها.

قوله تعالى: (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ). أي ذو سعة في جميع صفاته فهو واسع العلم، والقدرة، والرحمة، والمغفرة، وغير ذلك من صفاته، فإنها صفات واسعة عظيمة عليا، و(عليم) أي ذو علم وهو واسع فيه وعلمه شامل لكل شيء جملة وتفصيلاً حاضرًا ومستقبلاً وماضيًا.

من فوائد هذه الآية:

ضرب الأمثال، وهو تشبيه المعقول بالمحسوس لأن ذلك أقرب إلى الفهم.

ومنها: أن القرآن على غاية ما يكون من البلاغة، والفصاحة، لأن الفصاحة هي الإفصاح بالمعنى، وبيانه، وضرب الأمثال من أشد ما يكون إفصاحًا وبيانًا: قال تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) [العنكبوت ٤٣]

ومنها: فضيلة الانفاق في سبيل الله لأنه ينمو للمنفق حتى تكون الحبة سبعمائة حبة.

ومنها: الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل، لقوله تعالى: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بأن يقصدوا بذلك وجه الله عز وجل.

ومنها الإشارة إلى موافقة الشرع، لقوله تعالى: (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) لأن (في) للظرفية، والسبيل بمعنى الطريق، وطريق الله: شرعه، والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله، والإنفاق الذي يكون موافقًا للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) [الفرقان ٦٧].

ومعنى إنفاقهم في شرع الله أن يكون ذلك إخلاصًا لله، واتباعًا لشرعه، فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله.

ومنها: إثبات الملكية للإنسان لقوله تعالى (أموالهم) فإن الإضافة هنا تفيد الملكية.

ومنها: وجه الشبه في قوله تعالى: (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ) فإن هذه الحبة أنبتت سبع سنابل، وشبهها الله بذلك، لأن السنابل غذاء للجسم والبدن، كذلك الإنفاق في سبيل الله غذاء للقلب والروح.

ومنها: أن ثواب الله، وفضله أكثر من عمل العامل، لأنه لو عومل العامل بالعدل لكانت الحسنة بمثلها، لكن الله يعامله بالفضل والزيادة فتكون الحبة الواحدة سبعمائة حبة بل أزيد لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

ومنها: إثبات الصفات الفعلية - التي تتعلق بمشيئة الله عز وجل لقوله تعالى: (يضاعف) و(المضاعفة) فعل.

ومنها: إثبات مشيئة الله لقوله تعالى: (لمن يشاء)، ودليله قوله تعالى: (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الإنسان ٣٠]

ومنها: أن الله له السلطان المطلق في خلقه، ولا أحد يعترض عليه، لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء).

ومنها: إثبات هذين الإسمين من أسماء الله (الواسع) و (العليم) لقوله تعالى: (واسع عليم) وإثبات ما تضمناه من صفة، وهما السعة والعلم.

ومنها: الحث والترغيب في الإنفاق في سبيل الله يؤخذ هذا من ذكر فضيلة الإنفاق في سبيل الله، فإن الله لم يذكر هذا إلا من أجل هذا الثواب فلا بد أن يعمل له.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

القرآن الكريم
باب الفقه

صفة العمرة

الحلقة الثانية

إعداد / د. حمدي طه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: سبق معنا فيما مضى الحديث عن صفة العمرة، وقد تكلمنا عن أركان العمرة وهي الإحرام والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، ثم تكلمنا عن واجبات العمرة وهي الإحرام من الميقات، والحلق أو التقصير، ثم أخذنا في الحديث عن أعمال العمرة حسب ترتيب هذه الأعمال حتى انتهينا من الحديث عن محظورات الإحرام ، ونكمل ما قد بدأناه فنقول وبالله تعالى التوفيق:

التلبية:

وَالْمُرَادُ بِالتَّلْبِيَةِ هُنَا: قَوْل الْمُحْرِمِ: « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ... « أَيْ إِجَابَتِي لَكَ يَا رَبُّ.. وَالْمُرَادُ بِهَا التَّكْثِيرُ. وَالْمَعْنَى: أَجَبْتُكَ إِجَابَةً بَعْدَ إِجَابَة، إِلَى مَا لاَ نِهَايَةَ (الموسوعة الفقهية الكويتية٢/١٢٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتلبية هي إجابة دعوة الله تعالى لخلقه حين دعاهم إلى حج بيته على لسان خليله، والملبي هو المستسلم المنقاد لغيره كما ينقاد الذي لُبِّب وأُخذ بلبته، والمعنى: أنا مجيبك لدعوتك، مستسلم لحكمك، مطيع لأمرك مرة بعد مرة، لا أزال على ذلك». ذكره شيخ الإسلام [حجة النبي - الألباني ص٥٤].

والتلبية تكون عقب الإحرام على الأصح، والتَّلْبِيَةُ سُنَّةٌ فِي الإِْحْرَامِ مُتَّفَقٌ عَلَى سُنِّيَّتِهَا إِجْمَالاً (الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/ ١٧٣).

وصفتها بالإجماع: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) ؛ اتباعاً لفعل النبي صلى الله عليه وسلم. كما ورد عن ابن عمر أن تلبية رسول الله: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك). متفق عليه. (الفقه الإسلامي وأدلته.د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ ٣/٤٩٢).

وكان عبد الله بن عمر يزيد في تلبيته: لبَّيْك لَبَّيْكَ، لبيك وسَعْدَيْكَ، والخَيْرُ بيدَيْكَ، والرَّغْبَاءُ إليك والعَمَلُ. وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

ويسن الإكثار منها في أثناء الإحرام، في الارتفاع والهبوط ودبر الصلوات المكتوبات، وعند إقبال الليل وإدبار النهار، ولقاء الرفقة، لحديث سهل بن سعد: «ما من مسلم يلبي إلا لبّى ما عن يمينه وشماله، من شجر أو حجر، أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا» رواه الترمذي.

ولا تشرع التلبية بغير العربية لقادر على العربية، لأنه ذكر مشروع، فإن عجز عن العربية، لبى بلغته كالتكبير في الصلاة. ويستحب رفع الصوت بالتلبية.فعن السائب بن خلاد قال: قال رسول الله: (أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية). رواه أبو داود ولقول أنس: «سمعتهم يصرخون بها صراخاً» رواه البخاري. ولأن رفع الصوت بها إظهار لشعائر الله وإعلان بالتوحيد. والمرأة تلبي سراً بقدر ما تُسمع رفيقتها. ويستمر في التلبية من الإحرام إلى أن يشرع في الطواف. ومن أخطاء بعض المعتمرين عدم الاهتمام في التلبية إما كسلاً أو جهلاً بفضلها. (العمرة لسليمان اللهيميد ص٧).

الطواف:

هُوَ الدَّوَرَانُ حَوْل الْبَيْتِ الْحَرَام. فإذا وصل (المحرم) إلى الكعبة قطع التلبية قبل أن يشرع في الطواف (صفة العمرة ابن باز ص١٦). ويسن أن يقدم رجله اليمنى عند المسجد.فعن أنس بن مالك قال: (من السنة إذا دخلت المسجد أن تبدأ برجلك اليمنى). رواه الحاكم، ويقول الدعاء الوارد عند دخول المسجد؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك) قلت: وليس هناك دعاء خاص عند رؤية الكعبة.

شروط الطواف:

يمكن تلخيص شروط الطواف على النحو التالي:

١ - الطهارة عن الحدث والنجس عن عائشة . رضي الله عنها . (أن النبي صلى الله عليه وسلم أول شيء بدأ به حين قدم مكة أنه توضأ ثم طاف بالبيت). متفق عليه.

قال النووي:(فيه دليل لإثبات الوضوء للطواف؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعله ثم قال صلى الله عليه وسلم: « لتأخذوا عني مناسككم» [شرح النووي

على صحيح مسلم ٨/ ٢٢٠]. قلت: ولأن الطواف بالبيت صلاة فيُشترط له ما يشترط لصحة الصلاة؛ لقوله صلَى الله عليه وسلَم: «الطَواف بالبيت صلاة؛ إلا أنَّ الله أباح فيه الكلام؛ فلا تَكلَموا فيه إلا بخير» (صَحيح ابن حبان ٣٨٣٦).

٢- ونية الطواف: والنية المعينة شرط عند الحنابلة. لحديث: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) صحيح البخاري. ولأن الطواف بالبيت صلاة (شرح الزاد للحمد ١١/ ١٤٥). والمشي للقادر شرط عند الحنابلة، وكون الطواف في المسجد شرط بالاتفاق.

٣- الابتداء بالحجر الأسود: وهو شرط عند الشافعية، وجعل البيت عن يسار الطائف: وهو شرط عند الجمهور و الموالاة: وهو شرط عند المالكية والحنابلة. وكون الطواف سبعة أشواط: وهو شرط عند الجمهور. (الفِقْهُ الإسلاميُّ د. وَهْبَة الزُّحَيْليَ ٣/ ٥٣١ بتصرف).

سنَن الطواف:

- الاضْطبَاع: هُوَ أَنْ يَجْعَل وَسَطَ الرِّدَاء تَحْتَ إبطه الْيُمْنَى عَنْدَ الشرُوع فِي الطَّوَاف، وَيَرُدُّ طَرَفَيْه عَلَى كَتفه الْيُسْرَى وَتَبْقَى كَتفُهُ الْيُمْنَى مَكْشُوفَةً، وَهُوَ سُنَّةٌ عنْدَ الْجمْهُور للرِّجَال دُونَ النِّسَاء ؛ لمَا رُويَ عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ: « أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ طَافَ مُضْطَبعًا أخرجه الترمذي (الموسوعة الفقهية الكويتية٢٩/ ١٣٤).

- استلام الحجر بيده اليمنى، وتقبيله ونحوه، ويسن استقبال الحجر بوجهه، فعن عمر (أنه قبل الحجر الأسود فقال: (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلك ما قبّلتك). متفق عليه. ويقول: «بسم الله والله أكبر، اللهم إيماناً بك و تصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم» رواه الطبراني عن ابن عمر ويقول ذلك كلما استلمه (العمرة لسليمان اللهيميد ص٨).

- الرَّمَل: وهُوَ إسْرَاعُ الْمَشْي مَعَ تَقَارُب الْخُطَى، ويرمل الآفاقي في الأشواط الثلاثة الأولى، ويمشي في بقية الأشواط، لما ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (أن النبي صلى الله عليه وسلم خبَّ الأشواط الثلاثة الأول، ومشى باقي الطواف)، (شرح زاد المستقنع للشنقيطي ٥/ ٢٤٦).

وإن شك في عدد الأشواط بنى على اليقين، وهو الأقل، فإذا شك هل طاف ثلاثة أشواط أو أربعة جعلها ثلاثة وهكذا يفعل في السعي. ويقرب الطائف جانبه الأيسر للبيت.

- اسْتلَامُ الرُّكْنِ الْيَمَانيِّ: اسْتلَامُهُ يَكُونُ بوَضْع الْيَدَيْنِ عَلَيْه، وَهُوَ الرُّكْنُ الْوَاقعُ قبَلَ رُكْن الْحجَر الأَسْوَد.فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَال: مَا تَرَكْتُ اسْتلَامَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ: الْيَمَانِيِّ وَالْحَجَر، مُذْ رَأَيْتُ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَسْتَلمُهُمَا، فِي شِدَّةٍ وَلاَ رَخَاءٍ (أخرجه مسلم).

ويستلم الركن اليماني ولا يقبله، وذلك في كل شوط، عن جابر بن عبد الله في صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم قال: (حتى إذا أتينا البيت استلم الركن اليماني). رواه مسلم وعند استلام الركن اليماني لا يقل شيئاً، لا تكبير ولا غيره، لأن ذلك لم يرد. وليس للطواف ذكر خاص، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ويستحب له في الطواف أن يذكر الله تعالى، ويدعوه بما يشرع، وإن قرأ القرآن سرًا فلا بأس، وليس فيه ذكر محدود عن النبي صلى الله عليه وسلم، لا بأمره، ولا بقوله، ولا بتعليمه، بل يدعو فيه بسائر الأدعية الشرعية، وما يذكره كثير من الناس من دعاء معين تحت الميزاب، ونحو ذلك فلا أصل له. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يختم طوافه بين الركنين بقوله: «رَبَّنَا آتنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخرَة حَسَنَةً وَقنَا عَذَابَ النَّار» رواه أبو داود عن عبد الله بن السائب (مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦/ ٢٦).

قلت: ومن أخطاء بعض المعتمرين الحرص على تقبيل الحجر الأسود لا بقصد التأسي برسول الله (ولكن لاعتقاد أنه ينفع أو يضر، وكذلك مزاحمة الناس لأجل الوصول إلى الحجر لتقبيله مما يؤدي إلى الأذية والسب والشتم وذهاب الخشوع.

وكذلك التمسح بجدران الكعبة أو بالكسوة، كل هذا أمر لا يجوز ولا أصل له في الشريعة، ولم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وإنما قبّل الحجر الأسود واستلمه، واستلم جدران الكعبة من الداخل، لما دخل الكعبة ألصق صدره وذراعيه وخده في جدارها وكبر في نواحيها ودعا، أما في الخارج فلم يفعل صلى الله عليه وسلم شيئا من ذلك فيما ثبت عنه، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه التزم الملتزم بين الركن والباب، ولكنها رواية ضعيفة، وإنما فعل ذلك بعض الصحابة رضوان الله عليهم. فمن فعله فلا حرج، والملتزم لا بأس به، وهكذا تقبيل الحجر سنة. أما كونه يتعلق بكسوة الكعبة أو بجدرانها أو يلتصق بها، فكل ذلك لا أصل له ولا ينبغي فعله ؛ لعدم نقله عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة رضي الله عنهم. (مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز ١٧/ ٢٢٢).

- الصلاة خلف مقام إبراهيم: بعد الانتهاء من الشوط السابع يصلي ركعتين خلف يقرأ في الأولى بالكافرين والثانية بالإخلاص. قال جابر في صفة حج النبي: (... ثم نفذ إلى مقام إبراهيم (فقرأ: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فجعل المقام بينه وبين البيت وقرأ في

الركعتين: قل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون). رواه مسلم ح١٢١٨.

ثم يرجع إلى الركن فيستلمه إن تيسر له ذلك. قال جابر في صفة حج النبي:ثم عاد إلى الحجر ثم ذهب إلى زمزم فشرب منها وصب على رأسه). رواه أحمد.

وقد قال صلى الله عليه وسلم في ماء زمزم: (ماء زمزم لما شرب له). رواه أحمد، وقال أيضاً:(إنها مباركة وهي طعام طعْم) رواه مسلم.

ومن أخطاء بعض المعتمرين: اعتقاد أن ركعتي الطواف لا تصح إلا خلف مقام إبراهيم فيتزاحمون لأجل أدائها في هذا الموضع.

ومن الأخطاء التمسح بمقام إبراهيم بعد أداء ركعتي الطواف. (العمرة لسليمان اللهيميد ص١٠).

السعي بين الصفا والمروة:

والْمُرَادُ بالسَّعْيِ قَطْعُ الْمَسَافَة الْكَائنَة بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَة سَبْعَ مَرَّات ذَهَابًا وَإِيَابًا بَعْدَ طَوَافٍ فِي نُسُك حَجٍّ أَوْ عُمْرَة وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى السَّعْيِ الطَّوَافُ، وَالتَّطَوُّف، كَمَا فِي الْآيَة: «فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْه أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا». (الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٥/١١).

وشروط السعي:

أ - أَنْ يَكُونَ السَّعْيُ بَعْدَ طَوَافٍ صَحِيحٍ عند الشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة.

ب - اَلتَّرْتيبُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَة بِأَنْ يَبْدَأَ بالصَّفَا فَالْمَرْوَة، حَتَّى يَخْتِمَ سَعْيَهُ بالْمَرْوَة، اتِّفَاقًا بَيْنَ الفقهاء. فإن بدأ بالمروة لم يعتد بذلك الشوط ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ بالصفا وقال: (نبدأ بما بدأ الله به) رواه مسلم.

ج - أن يكون سبعة أشواط لفعل رسول الله صلَى الله عليه وسلم.

د- استيعاب ما بين الصفا والمروة: يجب أن يقطع جميع المسافة بين الصفا والمروة، اقتداء بفعل النبي صلى الله عليه وسلم.

- الموالاة بين الأشواط: شرط عند المالكية والحنابلة، سنة عند غيرهم، وأضاف البعض شروطاً أخرى وهي: إسلام، وعقل، ونية معينة، ومشي لقادر. (الفقه الإسلامي د. وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ ٣/٥٤١ بتصرف).

وَيَبْدَأُ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَة منَ الصَّفَا، فَيَرْقَى عَلَى الصَّفَا حَتَّى يَرَى الْكَعْبَةَ الْمُعَظَّمَةَ، فَيَقِفُ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهَا وَيُهَلِّل وَيُكَبِّرُ وَيَدْعُو قال جابر في صفة حج النبي: (... ثم خرج إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: إن الصفا والمروة من شعائر الله، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات). رواه مسلم.

ثُمَّ يَنْزِل مُتَوَجِّهًا إِلَى الْمَرْوَة ماشياً حتى يأتي العلم الأول وهو العلم الأخضر الذي هو علامة ابتداء بطن الوادي فيسعى سعياً شديداً حتى يصل إلى العلم الثاني وهو علامة انتهاء بطن الوادي، ويستحب له أن يقول: ما ورد عن ابن مسعود في البيهقي بإسناد جيد أنه كان يقول بين العلمين: (اللهم اغفر وارحم فإنك أنت الأعز الأكرم).

فإذا انتهى من ذلك مشى حتى يأتي المروة، فَيَقِفُ عَلَيْهَا يَذْكُرُ وَيَدْعُو بمثْل مَا فَعَل عَلَى الصَّفَا، ثُمَّ يَنْزِل فَيَفْعَل كَمَا فِي اَلشَّوْط الْأَوَّل حَتَّى يُتمَّ سَبْعَة أَشْوَاط تَنْتَهِي عَلَى الْمَرْوَة، وَلْيُكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ فِي سَعْيه.

واعلم أن أهل العلم قد أجمعوا على أن المرأة لا يستحب لها أن تسعى بين الميلين ولا أن ترمل في الأشواط الثلاثة الأولى في الطواف. (شرح الزاد للحمد ١١/١٦٠).

قلت: وأما الطهارة عن الجنابة والحيض: فليست بشرط للسعي، فيجوز سعي الجنب والحائض بعد أن كان طوافه بالبيت في حال طهارة عن الجنابة والحيض ؛ لأن هذا نسك غير متعلق بالبيت.. ومن أخطاء بعض المعتمرين الاضطباع حال السعي، فالاضطباع خاص بالطواف.

الحلق أو التقصير:

إِذَا فَرَغَ الْمُعْتَمرُ منْ سَعْيِه حَلَقَ رَأْسَهُ أَوْ قَصَّرَهُ وَتَحَلَّل بذَلكَ منْ إحْرَامه تَحَلُّلاً كَاملاً. والحلق أفضل من التقصير.لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين، قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين، قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين، قال: وللمقصرين) متفق عليه.

والتقصير لا بد أن يعم جميع شعر الرأس.لقوله تعالى: «محلقين رؤوسكم ومقصرين»، ومن المعلوم أن الإنسان إذا قصر ثلاث شعرات من جانب الرأس لم يعد مقصراً، وأما المرأة فتقصر من شعر رأسها بقدر أنملة فقط.

ومن نسي الحلق أو التقصير في العمرة فطاف وسعى، ثم لبس قبل أن يحلق أو يقصر، فإنه ينزع ثيابه إذا ذكر ويحلق أو يقصر ثم يعيد لبسهما. (العمرة لسليمان اللهيميد ص١٢).

طواف الوداع:

ويطوف المعتمر طواف الوداع عند خروجه من مكة؛ لحديث ابن عباس . رضي الله عنهما . قال: (أُمرَ الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خُفف عن الحائض). متفق عليه.

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال.

واحة التوحيد

فضل الصلاة في المسجد الحرام

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ» [سنن ابن ماجه ١٤٠٦ وصححه الألباني].

دعاء يوم عرفة

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. [سنن الترمذي ٣٥٨٥ وحسنه الألباني].

فضل صيام يوم عرفة

عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي صلي الله علية وسلم قال: «صوم يوم عرفة يكفر سنتين؛ ماضية ومستقبلة». [صحيح مسلم].

من نور كتاب الله

من المنهيات على الحاج

قال تعالى: «ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ» [البقرة: ١٩٧].

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

«من تزوج قبل أن يحج فقد بدأ بالمعصية». حديث موضوع. فلا حرج على المسلم أن يتزوج قبل الحج أو أن يحج قبل أن يتزوج. وعلى أصحاب القدرة والاستطاعة المسارعة في أداء فريضة الحج.

وقت التكبير فى عيد الأضحى وأصحه

قال ابن حجر في الفتح: أخرج البيهقي عن أصحاب ابن مسعود أنه يبدأ تكبير العيد من صبح يوم عرفة إلى آخر أيام منى. وأما صيغة التكبير فأصح ما ورد فيه ما أخرجه عبد الرزاق عن سلمان قال: « كبروا الله، الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيراً» وقيل يكبر ثنتين بعدهما « لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر، ولله الحمد». [فتح الباري لابن حجر].

إعداد:
علاء خضر

من هدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم في الحج

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رضي الله عنهما- قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي الْجَمْرَةَ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا. [سنن النسائي ٣٠٦٢ وصححه الألباني]. وهذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

من فضل الحج

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ. [صحيح البخاري ١٧٧٣].

من آداب الحج وأسباب قبولِه

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سأل رجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما الحج؟ فقال: الشعث التفل. (أي: أشعث أغبر غير متزين، ولا مائل إلى أسباب التفاخر)، فقام آخر فقال: يا رسول الله أي الحج أفضل؟ قال: العجّ (أي: رفع الصوت بالتلبية)، والثج (أي: إراقة دم الهدْي). فقام آخر فقال يا رسول الله ما السبيل؟ قال: زاد وراحلة. [سنن البيهقي، وحسنه الألباني في المشكاة برقم ٢٥٢٧].

فضل العشر الأوائل من ذي الحجة

عَنْ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ -يعني أيام العشر-. قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: وَلَا الْجِهَادُ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ. [صحيح البخاري ٩٦٩].

تحذير نبوي !

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من باع جلد أضحيته فلا أضحية له.
[صحيح الجامع للألباني].

من سنن العيد !

عن أبي رافع أن النبي صلي الله علية وسلم: كان يخرج إلى العيدين ماشيًا ويصلي بغير أذان ولا إقامة، ثم يرجع ماشيًا في طريق آخر.
[صحيح الجامع للألباني].

احذر أيها المضحي

عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلي الله علية وسلم قال: إذا رأيتم هلال ذي الحجة، وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره.

[صحيح مسلم].

أثر السياق في فهم النص

ما بين الكليات العامة والأدلة الخاصة

الحلقة (٥٣)

إعداد/ **متولي البراجيلي**

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد ذكرنا في العدد السابق أن الكليات من القرائن العامة التي تُستخدم في فهم النصوص الشرعية وفي توجيه الأدلة الخاصة، وأن الكليات تنقسم إلى ثلاثة أقسام، هي: الضروريات الخمس، الحاجيات، التحسينيات، فتكلمنا عن الضروريات الخمس، ونستأنف البحث.

القسم الثاني: الحاجيات:

وهي المصالح والأعمال والتصرفات التي لا تتوقف عليها الحياة واستمرارها، بل إذا تركناها لا تختل ولا تفسد الحياة الإنسانية، فالحياة تتحقق بدون تلك الحاجيات، ولكن مع الضيق فهي أعمال وتصرفات شُرعت لحاجة الناس إلى التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة. (المهذب في علم أصول الفقه د. عبد الكريم النملة ٣/ ١٠٠٥).

ومن مبادئ الشريعة أنها جاءت بالتيسير ورفع الحرج، كما قال تعالى: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (الحج: ٧٨)، وقال تعالى: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» (التوبة:١٨٥) وهي جارية في العبادات، والعادات، والمعاملات، والجنايات.

ففي العبادات: كالرخص المخففة بالنسبة إلى لحوق المشقة بالمرض، والسفر: كالمسح على الخفين، والجمع بين الصلاتين، وإسقاط الصلاة عن الحائض والنفساء، والقصر للمسافر والمريض.

وفي العادات: كإباحة الصيد والتمتع بالطيبات مما هو حلال، مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ومركباً، وما أشبه ذلك.

وفي المعاملات: كالقراض (المضاربة)، والمساقاة، والسَّلَم..

وفي الجنايات: كالحكم باللوث (أي القرينة التي تثير الظن، وتوقع في القلب صدق المدعي، لكنها لا تكون بينة تامة. (انظر الموسوعة الفقهية ٩١/١٤).

والقسامة (وهي أن يقسم خمسون من أولياء القتيل على استحقاقهم دية قتيلهم، إذا وجدوه قتيلاً بين قوم ولم يُعرف قاتله، فإن لم يكونوا خمسين رجلا أقسم الموجودون خمسين يميناً. (انظر الموسوعة الفقهية

٢٤٩/٧، والموافقات ٢/٢١-٢٢، تيسير علم أصول الفقه للجديع ٣٣٥).

القسم الثالث: التحسينيات (التتمات):

وهي المصالح والأعمال والتصرفات التي لا تتوقف الحياة عليها، ولا تفسد ولا تختل، فالحياة تتحقق بدون تلك التحسينات، وبدون أي ضيق فيها، فهي من قبيل التزيين والتجمل والتيسير، ورعاية أحسن المناهج وأحسن الطرق للحياة، فتكون من قبيل استكمال ما يليق، والتنزه عما لا يليق من المدَنّسات التي تألفها العقول الراجحة.

ومن أمثلة ذلك: المنع من بيع الماء والكلأ، والمنع من بيع النجاسات، والابتعاد عن الإسراف والتقتير، ومجانبة ما استخبث من الطعام وآداب الأكل والشراب، هذه أمثلته العامة.

ومن أمثلة ذلك في الأمور الخاصة:

اشتراط الولي في النكاح، صيانة للمرأة عن مباشرة عقد النكاح بنفسها؛ لأن المرأة لو باشرت عقد النكاح بنفسها، لكان ذلك مُشعرًا بتوقانها إلى الرجال، وحبّها لهم، ومشعرًا أيضًا بقلة حيائها، وأنه لا مروءة لها، وهذا يقلل من قيمتها عند الخاطب، ونظرًا لذلك فقد مُنعت المرأة من عقد نكاحها بنفسها، ففوض ذلك إلى الولي، تزيينًا للمرأة وتحسينًا في نظر الخاطب، وحملاً للخلق على أحسن المناهج وأجمل السير.

واشتراط الولي في نكاح يمكن أن يكون مثالاً للحاجيات- أيضًا- إذا قلنا: إن اشتراط الولي في النكاح كان لعلة أخرى، وهي: أن رأي المرأة قاصر في اختيار وانتفاء الأزواج، وأنها تغتر بالمظاهر، ونظرًا لذلك مُنعت من مباشرة ذلك بنفسها، وفوض ذلك إلى الولي؛ لأنه أعلم بمعادن الرجال منها. [المهذب د. عبد الكريم النملة ٣/١٠٠٥-١٠٠٦ بتصرف يسير].

سؤال: هل يجوز للمجتهد التمسك بالحاجيات والتحسينيات من غير دليل شرعي:

هذا لا يجوز بالإجماع؛ لأنه لو جاز التمسك بالمصلحة الحاجية أو التحسينية، بدون دليل أو أصل شرعي، للزم من ذلك أمور باطلة، وهي كما يلي:

١- أنه يلزم وضع الشرع بالرأي المجرد، وهذا باطل.

٢- أنه لا يحتاج إلى بعثة الرسل والأنبياء ليعَلِّموا الناس شرع ربهم، ولكان الخلق يشرعون ما يريدون بعقولهم، فما يحسنه العقل أثبتوه، وما قبحه العقل اجتنبوه، وهذا ظاهر البطلان، لأن العقل لا مدخل له في الشرعيات (لأنها توقيفية).

٣- أنه يلزم من ذلك عدم الفرق بين المجتهد والعامي، وأن كل واحد منهما يساوي الآخر، لأن كل واحد منهما يعرف مصلحة نفسه فيما يقع موقع الحاجة والتحسين، وهذا باطل. [المهذب ٣/١٠٠٧]..

أهمية الكليات وأثرها في توجيه الأدلة الخاصة:

وقبل أن نرى أهمية الكليات وأثرها في توجيه الأدلة الخاصة، فإنه يحسن بنا أن نعرف الأدلة الخاصة كما عرفنا الأدلة العامة من قبل.

الأدلة الخاصة:

الدليل الخاص هو الدليل المتعلق بمسألة معينة بحيث يخصها دون غيرها.

ومن أمثلة ذلك:

١- قوله تعالى: « وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [البقرة: ٢٢٨]، فهذا دليل خاص بالمرأة المطلقة التي تحيض، فعدتها ثلاث حيضات.

٢- قوله تعالى: « لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [البقرة:٢٢٦] وهذا دليل خاص بالإيلاء: وهو أن يحلف الرجل ألا يطأ امرأته مدة من الزمن، فليس له إلا أن يتربص (ينتظر) أربعة أشهر كحد أقصى لعدم جماع زوجته.

٣- قوله تعالى: « وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [المائدة:٣٨]، فهذا دليل خاص بحد السرقة، بالشروط التي حدَّدها أهل العلم.

كما أننا نجد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث تتعلق بمسألة بعينها، سواء كانت استثناءً من دليل عام، وذلك كجواز أكل أصناف من الميتة ومن الدم، وقد حرم الله تعالى الميتة والدم على العموم. قال تعالى: «حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير»، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أحلت لكم ميتتان ودمان: فأما الميتتان: فالحوت «السمك» والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال». (صحيح سنن ابن ماجه وغيره).

فهذا دليل خاص مقصور على جواز أكل ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث فقط ولا يتعدى إلى غيره. أو يكون الدليل واقعة عين لا عموم لها (أي تخص الواقعة التي قيلت لأجلها أو الشخص الذي قيلت له فقط) فلا تتعدى إلى غيرها، ومن ذلك ما جاء عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر

بعد الصلاة، فقال: من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فتلك شاة لحم. فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، والله لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، فتعجلت، وأكلت، وأطعمت أهلي وجيراني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلك شاة لحم. قال: فإن عندي عناق جذعة هي خير من شاتي لحم، فهل تجزئ عني؟ قال: نعم، ولن تجزئ عن أحد بعدك. (متفق عليه).

(العناق من الماعز: هي ما لم تبلغ خمسة أشهر أو نحوها، وهي لا تجوز في الضحايا بإجماع، وإنما يجوز من المعز الثني: وهو ما أتم سنة ودخل في الثانية) (انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢١/٦)، قال ابن عبد البر: وهو أمر مجمع عليه عند العلماء، أن الجذع من المعز(العناق) لا تجزئ اليوم عن أحد؛ لأن أبا بردة خُصَّ بذلك (التمهيد ١٨٥/٢٣).

أهمية الكليات العامة:

إن النظرة الشمولية للشريعة وأحكامها لا تتأتى إلا لمن خبروا المقاصد وأحكموا الكليات، ثم نظروا في الأحكام من خلال ذلك، ومن فاته هذا المستوى وأهمله وقع في التخبط والاضطراب وأتى بالأقوال الشاذة المجافية لمقاصد الشارع.

يقول الشاطبي: فإن المجتهد إنما يتسع مجال اجتهاده بإجراء العلل والالتفات إليها، ولولا ذلك لم يستقم له إجراء الأحكام على وفق المصالح إلا بنص أو إجماع. (الموافقات ٣١٩/١).

فالنظر في الجزيئات والاستغراق فيها مع عدم الالتفات إلى الكليات والمقاصد التي جاء من أجلها الشرع يؤدي إلى خطأ في التصور والاجتهاد. ولقد نبَّه ابن مسعود رضي الله عنه على بعض ذلك حين قال لإنسان (لرجل): إنك في زمان كثير فقهاؤه، قليل قرَّاؤه، تُحفظ فيه حدود القرآن، وتضيع حروفه، قليل من يسأل، كثيرٌ من يعطي، يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة، يُبدون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمان قليلٌ فقهاؤه، كثير قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدون فيه أهوائهم قبل أعمالهم. (موطأ مالك ح ٥٩٧، قال ابن عبد البر: هذا الحديث قد روي عن ابن مسعود ومن وجوه متصلة حسان متواترة، الاستذكار ٢/٣٦٣، وقال الألباني: وقد صحَّ موقوفا من حديث عبد الله بن مسعود، السلسلة الصحيحة ٥٧٥/٧).

[فائدة: وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه من الفقه: مدح زمانه لكثرة الفقهاء فيه وقلة القراء، وزمانه هذا هو القرن الممدوح على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه دليل على أن كثرة القراء للقرآن دليل على تغير الزمان وذمه لذلك (الاستذكار ٣٦٣/٢).

قلت: ليس المقصود ذم حفظ القرآن - فهذا من أجلِّ القربات- ولكن المقصود أن يجعل الناس شغلهم الشاغل فقط هو حفظ القرآن دون أن يعملوا بمعانيه، فلا يقفون عند أوامره ونواهيه. قال ابن بطال: فذم من حفظ الحروف وضيع العمل، ولم يقف عند الحدود، ومدح من عمل بمعاني القرآن وإن لم يحفظ الحروف. (شرح صحيح البخاري ٤٢١/١٠)].

يقول الشاطبي: انبنت الشريعة على قصد المحافظة على المراتب الثلاث، من الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات؛ لأنها كليات تقضي على كل جزئي (دليل خاص) تحتها. فشأن الجزئيات مع كلياتها، كشأنها في كل نوع من أنواع الموجودات، فمن الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص. مثلاً. في جزئي معرضاً عن كليه فقد أخطأ. وكما أن من أخذ بالجزئي معرضاً عن كليه فهو مخطئ، كذلك من أخذ بالكلي معرضاً عن جزئيه (انظر الموافقات ١٧١/٣- ١٧٤).

فالاجتهاد الصحيح إذن: أن كل مسألة تعرض، يجب عرضها على الأدلة الجزئية، وعلى الأدلة الكلية والمقاصد العامة للشريعة. والذي يقتصر في اجتهاده وفتواه على ما فهمه من دليل جزئي، لا يقل اجتهاده قصوراً واختلالاً عمن ألم بشيء من مقاصد الشريعة في حفظها للمصالح الضرورية والحاجية والتحسينية ودرئها للمفاسد، ثم أخذ يفتي ويحكم دون مراجعة ونظر في الأدلة الخاصة لكل مسألة وكل نازلة، فكلاهما قاصر عن درجة الاجتهاد الأمثل، فلا بد أن يكون الحكم مبنياً على الأدلة الكلية والأدلة الجزئية.

طرق معرفة الكليات:

تأتي الكليات من أدلة متعددة وأوجه كثيرة في الشرع، ويتم استقراؤها من الأدلة الظاهرة والعموميات والمطلقات والمقيدات، والأدلة الخاصة في مسائل خاصة ووقائع مختلفة في كل باب من أبواب الفقه، وكل نوع من أنواعه، فهي تقوم على أدلة ينضاف بعضها إلى بعض، مختلفة الأغراض، بحيث ينتظم في مجموعها أمر واحد تجتمع عليه

تلك الأدلة.. فلم يعتمد الناس في إثبات قصد الشارع في هذه القواعد (الكليات) على دليل مخصوص، ولا على وجه مخصوص (انظر الموافقات٢/٨١- ٨٢).

أقسام الكليات العامة من حيث طريقة معرفتها:

الكليات العامة تنقسم إلى قسمين: كليات نصية، كليات استقرائية:

فالكليات إما أن تأتي عن طريق النص أو عن طريق الاستقراء، فالكليات العامة تنقسم من حيث طريقة معرفتها إلى قسمين: كليات نصية، كليات استقرائية:

أولاً: الكليات النصية: وهي التي جاءت من نصوص القرآن والسنة الصحيحة، ومن أمثلة ذلك: المثال الأول: العدل: وهو مقصد من مقاصد الشرع الكبرى وكلية من كلياته، أمر الله تعالى به ونهى عن ضده، وهو الظلم، قال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» [النحل:٩٠]. بالعدل قامت السماوات والأرض، فالظلم يعاقب عليه المسلم والكافر؛ لأن الله تعالى لا يقر الظلم ولا يرضاه، فالعدل فرض واجب لكل أحد حتى ممن نبغضه ممن عادانا من الكفار وغيرهم، قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ» [المائدة:٨]. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا... الحديث (صحيح مسلم).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن قوله تعالى: «وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» فإنها تجمع الدين كله، فإن ما نهى الله عنه راجع إلى الظلم، وكل ما أمر به راجع إلى العدل. (الفتاوى الكبرى ١/ ٩٠). ويقول أيضاً: ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم»، فالباغي - بحسب ظاهر الحديث- تعجل له العقوبة في الدنيا حتى وإن غفر له الله ورحمه في الآخرة). [انظر: الاستقامة٢/٢٤٧]. والحديث رواه أبو ذر رضي الله عنه وهو في صحيح سنن الترمذي وغيره.

المثال الثاني: الوفاء بالعقود: كلية من كليات الشريعة ومقصد من مقاصدها وفريضة شرعية قال الله تعالى «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» [المائدة:١]، وقال تعالى: «وأوفوا بالعهد»، وقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ» [المعارج: ٣٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

والوفاء بالعقود يشمل جميع المتعاقد معهم مسلمين أو غير مسلمين، ما لم يكن في العقد ما يخالف أحكام الشرع. وفي حديث عوف المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرّم حلالاً أو أحل حرامًا، والمسلمون عند شروطهم إلا شرطا حرّم حلالاً أو أحل حرامًا (صحيح سنن الترمذيوغيره).

وفي الحديث: (المسلمون عند شروطهم)، رواه جمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: أبو هريرة، وعائشة، وأنس بن مالك، وعمرو بن عوف، ورافع بن خديج، وعبد الله بن عمر (أخرجه البخاري معلقا وأبو داود والحاكم وغيرهم موصولاً، انظر السلسلة الصحيحة ح ٢٩١٥، غاية المرام ح ٣٣٤).

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(متفق عليه).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فقد أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعقود وهذا عامّ، وكذلك أمر بالوفاء بعهد الله، وبالعهد، وقد دخل في ذلك ما عقده المرء على نفسه بدليل قوله تعالى: «وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا» [الأحزاب: ١٥]، فدل على أن عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه، وإن لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه قبل العهد، كالنذر والبيع... ثم قال: وقال سبحانه: «وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء:١]، قال المفسرون كالضحاك وغيره (تساءلون به) تتعاهدون وتتعاقدون؛ وذلك لأن كل واحد من المتعاقدين يطلب من الآخر ما أوجبه العقد من فعل أو ترك أو مال أو نفع أو نحو ذلك. (مجموع الفتاوى٢٩/٣٨-١٣٩).

وللحديث بقية إن شاء الله
والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

حقيقة يأجوج ومأجوج

(٣)

إعداد/ **عبد الرزاق السيد عيد**

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

أخي الكريم: الآن نعرض لحقيقة يأجوج ومأجوج أو قل حقائق، وكلها تعود إلى حقيقة واحدة، ألا وهي أصل يأجوج ومأجوج في الكتاب والسنة؛ هذه الحقيقة التي يقف العقل أمامها صاغرًا، ويصير كل تأويل يخالفها باطلاً؛ ذلك أن العقل مهما أوتي من علم فهو أمام حقائق الغيب يقف عاجزًا ما لم يستضئ بنور الوحي المعصوم.

هذا ومعلوم لكل من عنده أدنى نصيب من العلم أن الاجتهاد إذا خالف النص فلا عبرة به؛ لأنه لا اجتهاد أصلاً مع وجود النص، وحقائق الغيب لا مجال لمعرفتها إلا عن طريق الوحي المعصوم من كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الحقائق:

الحقيقة الأولى: يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى:

نعم أخي المسلم (يأجوج ومأجوج) من أشراط وعلامات الساعة الكبرى، والدليل على ذلك ما جاءت به السنة الصحيحة، نذكر منها ما جاء في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة عن الساعة: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات» فذكر «الدخان» والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، و(يأجوج ومأجوج). الحديث بتمامه في كتاب الفتن برقم (٢٩٠١).

والحاصل أن يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة، ولم يخرجوا بعدُ، وسيكون خروجهم في زمن عيسى ابن مريم حين ينزل في آخر الزمان كما سيأتي بيانه في أحاديث أخر، وفي ذلك ردّ على من زعم خروجهم وأنهم التتار أو المغول، وفيه كذلك رد على زعم عدم وجود السدّ إلى الآن.

وفي ضوء الحديث السابق أيضًا نفهم قوله تعالى في سورة الكهف: «فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» [الكهف: ٩٨]، ويظهر المقصود بالوعد هنا: وعد الآخرة، وظهور أشراط الساعة الكبرى، وليس كمن زعم إطلاق الوعد في أي زمان ومكان، والله أعلم.

الحقيقة الثانية: يأجوج ومأجوج أناس من ذرية آدم:

وهذا خلافًا لمن زعم غير ذلك؛ لما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه واللفظ للبخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا

هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّه شَدِيدٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّة فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّة فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّة فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ فِي النَّاس إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

والحديث السابق فيه تحديد لنوع يأجوج ومأجوج، وأنهم من ذرية آدم، كما فيه بشرى للمسلمين، وبيان فضل هذه الأمة المحمدية على سائر الأمم.

الحقيقة الثالثة:

توقيت خروجهم والأحداث المواكبة لخروجهم ونهايتهم بإذن الله:

١- قال الله تعالى: «حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ» [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧].

نفهم من الآيتين السابقتين أن خروج يأجوج بإذن الله سيكون قرب الساعة وهو أحد أشراطها الكبرى التي متى ما ظهرت تتابعت، والمقصود بقوله تعالى: «فتحت» أي: فُتح السدّ الذي حجزهم ذو القرنين خلفه، فكان خروجهم بهذه الصفة المذكورة في الآيات والتي تزيدها وضوحًا الأحاديث الصحيحة الآتية:

- في الصحيحين من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيْهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم فَزِعًا يَقُول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَب مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِه، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِه الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ.

- وفي صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان، وهو حديث طويل وفيه: «إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِه مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّه فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ».

- وفي فقرة أخرى من الحديث السابق قبل الفقرة السابقة: «... ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ، وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِس، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْض، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاء! فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا».

نستخلص من النصوص السابقة ما يلي:

١- يأجوج ومأجوج سيخرجون في التوقيت المقدَّر لهم.

٢- وسيكون خروجهم بعد نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان.

٣- لقد بدءوا منذ أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنهم في نقب السدِّ المضروب عليهم، وما زالت عملية الحفر مستمرة إلى أن يشاء الله، وقد جاء تفصيل هذا في حديث رواه أحمد وأبو داود والحاكم وابن حبان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدًا، فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله خروجهم أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله تعالى واستثنوا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس...» والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ح٤٠٨٠.

٤- لقد بدأوا محاولات الخروج منذ تركوا خلف السدّ، ولكنهم لن يُمكنوا من الخروج إلا في الوقت الذي قدَّره الله، وهو كما تقدم متزامن مع نزول عيسى عليه السلام.

٥- خروجهم سيكون مصدر فساد في الأرض حتى وصل بهم الغرور كما تقدم في تفكيرهم في الاعتداء على من في السماء!!

٦- يأمر الله عيسى عليه السلام أن يحصِّن المؤمنين الذين معه في ذلك الوقت بجبل الطور في سيناء؛ لأنهم لا يمكنهم مواجهة يأجوج ومأجوج وجهًا لوجه.

٧- يلجأ نبي الله عيسى ومن معه إلى الله بالدعاء ليدفع عنهم شرّ يأجوج ومأجوج أحياء وأمواتًا.

٨- يستجيب الله دعاء المؤمنين ويرسل دودًا صغيرًا على يأجوج ومأجوج فيقتلهم جميعًا ثم يرسل طيرًا ضخمًا يخلص الأرض من جثثهم ونتنهم رحمة بعيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين.

٩- موطن هذه الملحمة أرض الشام وبيت المقدس وفلسطين وسيناء بعد القضاء على الدجال واليهود ومن معهم إن شاء الله.

وإلى لقاء قادم بإذن الله.

مجالات الاستثمار في البنوك الإسلامية

إعداد/ **د. علي السالوس**

الحمد لله نحمده سبحانه وتعالى، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين.

أما بعد: فحديث اليوم موضوع هام يشغل أذهان الكثير من المسلمين: كيف تقوم المصارف الإسلامية باستثمار أموال المسلمين؟

سؤال يرد كثيرًا؛ لأننا عرفنا أن البنوك الربوية نشأت يهودية ربوية، ثم دخلت بلادنا وقت الاستعمار بطبيعتها اليهودية الربوية، وما كان لنا من حول ولا قوة، فما كنا نستطيع أن نقول هذا حلال وهذا حرام، ومن قال بأن هذا حرام لم يُسمع صوته.

نذكر على سبيل المثال فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم رحمه الله، الذي تولى مشيخة الأزهر مرتين قبل الشيخ شلتوت رحمه الله، وتولى الإفتاء عشرين عامًا، وله آلاف الفتاوى، عندما سئل عن بنك التسليف، وبنك التسليف في مصر إنما أنشئ أساسًا لمعاونة الفلاحين، يسلف الفلاحين لمساعدتهم في الزراعة، وعندما سئل عن هذا قال بأن هذا حرام؛ لأنه دراهم بفائدة، والدراهم بفائدة حرام، وإن كانت الدولة تأخذ فائدة قليلة، ولكنه يعرف حديث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بأنه لعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: «هم سواء»؛ الآخذ والمعطي سواء، وسواء كان هذا كثيرًا أم قليلًا، إلا أن مثل هذا التحريم كان له أثره في توجيه الرأي العام إلى أن هذا حرام، فلتفكروا في الحلال إذًا.

ما كان هناك بديل، ثم وجدنا خطوة هامة سنة ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢م، خطوة في مدينة تسمى مدينة ميت غمر، تجربة لبنوك ادخار تقوم على أساس النشاط الإسلامي، ويمكن أن نتصور كيف أن بنكًا واحدًا يقوم على أساس إسلامي، وكل العالم يقوم على أساس ربوي، والذي حدث أنه نتج عن أعماله نجاح غير متوقع، ومن هنا كانت الحرب.

كان معنى هذا: الحكم بالفشل على كل البنوك القائمة، فحورب بنك الادخار بميت غمر، وحُول إلى بنك ربوي، شيء مزعج!

ثم كانت الخطوة الرائدة في مجال الفكر الإسلامي في المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية، الذي اشترك فيه خمس وثلاثون دولة إسلامية، يمثلها عدد من أكبر علمائها، هؤلاء جميعًا أجمعوا على أن فوائد البنوك من الربا المحرم، ودعوا أهل الاختصاص إلى

التفكير في إنشاء بديل إسلامي.

وكان لهذه الدعوة الأثر الكبير؛ عندما بدأ المسلمون ينظرون إلى أنفسهم، ويحاولون أن يتخلصوا من الاستعمار السياسي، ثم بدءوا يتجهون إلى التخلص من الاستعمار الاقتصادي.

ووجدنا أن مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية، المؤتمر الأول، يدعو إلى البحث عن نظام اقتصادي إسلامي، ووجدنا المؤتمر الثاني يبدأ بخطوة عملية، هي وضع نظام لإنشاء البديل الإسلامي، وكان من نتيجة هذا أن أنشئ بنك التنمية الإسلامي في جدة، واشترك فيه آنذاك ست وعشرون دولة إسلامية، ثم ارتفع العدد بعد هذا إلى خمس وأربعين.

ووجدنا قبل إنشاء هذا البنك بأشهر قليلة إنشاء بنك دبي الإسلامي، ثم تتابع إنشاء بنوك إسلامية كثيرة، والعدد الآن يقرب من المائة في أنحاء العالم الإسلامي وغير الإسلامي؛ لأن هناك بنوكًا إسلامية في دول غير إسلامية.

والسؤال هنا هو: هذه البنوك الإسلامية؛ كيف تستطيع أن تستثمر أموال المسلمين بطريقة إسلامية؟

الأساس الذي انبنى عليه البنك الإسلامي هو شركة المضاربة الإسلامية، بأن يأخذ أموال المسلمين كمضارب أو كعامل، ثم يتاجر أو يصنع أو يزرع أو يعمل أي عمل يقرُّه الإسلام، وناتج الربح يقسم بين البنك وبين المودعين بنسبة متفق عليها.

وفي توجيه الاستثمار بدءوا ينظرون إلى أعمال البنوك الربوية؛ لأنهم يريدون أن يدعوا المسلمين إلى ترك التعامل مع البنوك الربوية، وإلى التعامل مع البنوك الإسلامية، وهذا يصبح فرضًا على المسلمين، فنظروا هنا إلى المعاملات التي تقوم بها البنوك الربوية، لماذا يلجأ المسلم إلى بنك ربوي؟ إنه يلجأ إليها لفتح اعتماد مثلًا، وتسأله: لماذا تفتح اعتمادًا هناك يا أخي المسلم؟ فيقول: أنا أريد فتح اعتماد لأنني أريد أن اشتري بضاعة وسلع كذا، وأتاجر في عمل كذا، وليس معي النقود الكافية، وإنما هذه العملية تتكلف مليون ريال، وليس معي إلا خمسمائة ألف، فيقول البنك الإسلامي له: نعم، يمكن أن نفتح لك اعتمادًا، ولكن ليس كالبنك الربوي، فتح الاعتماد في البنك الربوي يعني أن تقترض بفائدة، ولكنه يختلف عن القرض العادي بأن الفائدة فيه تبدأ من وقت الاقتراض، ولفتح الاعتماد عمولة.

البنك الإسلامي في هذه الحالة ينظر إلى المشروع ويدرسه، فإذا وجد أن هذا المشروع مما يطمئن إليه، وأنه يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، يقول لهذا المسلم: أنا أدخل معك شريكًا، أنت تريد فتح اعتماد بخمسمائة ألف ومعك خمسمائة ألف، المبلغ الذي معك أدفع مثله، ونشتري ما تريده من الأشياء، أو نفتح به هذا المصنع، أو نبني به هذا البيت، أو المشروع الذي تريده، وبعد أن يدرس المصرف الإسلامي المشروع ويطمئن له وللعميل يدخل معه شريكًا، ثم يبدأ العمل.

فلو اشترى أشياء وبيعت وربحت يقسم الربح بين الاثنين، ولو خسرت فإن الخسارة تقسم بين الاثنين، المغرم بالمغنم، وهكذا.

ثم نفرض أن هذه ليست بضاعة اشتريت وبيعت، وإنما هو يريد أن يبني بيتًا، ثم هو يريد أن يأخذ من البنك الربوي قرضًا ليبني البيت، ويريد القرض بفائدة؛ لأنه لا يريد شريكًا معه في البيت، هنا يدخل معه أيضًا المصرف الإسلامي؛ ولكن ليس كإقراض بالربا، إنما يدخل معه كالآتي:

الأرض هذه قيمتها كذا، والمبنى ما قيمته؟ قيمته كذا، أيضًا يدخل شريكًا مؤقتًا في شركة مؤقتة تنتهي بالتمليك، كيف ذلك؟

أنت دفعت قيمة الأرض، وأنا كمصرف إسلامي دفعت قيمة المبنى؛ فأصبح لي مثلًا (٥٠٪) وأنت لك (٥٠٪)، فلنجعل هذه أسهمًا، والبيت يؤجر؛ ليكون لي نصف الإيجار ولك نصف الإيجار، آخذ نصف الإيجار، ونصف الإيجار الذي لك، هل تستغني عنه بالكامل؟ يقول له: نعم، عندي الأرض فلا أريد الإيجار، فيقول المصرف: آخذ الجزء الآخر ثمنًا لجزء من العقار.

ما قيمة المبنى مع الأرض؟ قيمة المبنى مع الأرض، مثلًا، مليونان، وأنا أخذت جزءًا من الإيجار، هذا الجزء يعادل (٥٪) من المبنى والأرض، أنا أخذت إيجاري، وهو النصف، وأخذت خمسة في المائة؛ فأصبح لك الآن بعد أن أخذت إيجار العام الأول (٥٥٪) ولي (٤٥٪).

إذًا، أنا في العام القادم لي في الإيجار (٤٥٪)، وأنت لك في الإيجار (٥٥٪)، نبدأ في العام التالي: آخذ الإيجار كله أيضًا؛ فيصبح لك أنت أكثر من العام الأول، مثلًا، (٦٣٪) وأنا لي (٣٧٪)، في العام التالي أصبح لك (٧٠٪) وأنا لي (٢٠٪)، فآخذ إيجارا (٢٠٪) ثم أخذت أنت ما يقابل إيجار (٨٠٪)، فهذا يعادل، مثلًا، (١٠٪) من الأرض والمبنى، العام الرابع أو الخامس، أصبح لك المبنى كله مع الأرض، شركة منتهية بالتمليك، وأنا

الآن، كبنك إسلامي، استخدمت المال هذا في البناء، وأخذت ما يعادل نصيبي في الإيجار، ونصيبك أخذته أيضًا، ولكن ليس كفائدة قرض، وإنما كبيع جزء من الأرض والمبنى؛ لأن البيت أصبح ملكًا لنا معًا، بعد أن صرنا شركاء فيه.

أحيانًا يقول له: أنا أريد جزءًا من الإيجار، ولا أستغني عن كل الإيجار؛ فيقول المصرف: لا مانع، يمكن أن تأخذ جزءًا من الإيجار، والجزء الباقي أيضًا آخذه مقابل جزء من الثمن، وبدلًا من أن تنفضّ الشركة وتنتهي بعد خمس سنوات، مثلًا، فإنها تنتهي بعد عشر سنوات، وهكذا.

نقطة أخرى: أنه قد يريد المبلغ ولا يريد المشاركة، لماذا؟

لأنه مثلًا، بنى البيت فعلًا، ولكن ينقصه أشياء: تشطيبات معينة تحتاج إلى أعمال نجارة وسباكة؛ فهو لا يريد شريكًا في البيت، أو إن هذا البيت سوف يسكنه فلا يريد شريكًا فيه، فهل هناك من حل إسلامي؟

نعم هناك، وهو حل يجب أن يفهمه؛ لأنه ثار حوله كثير من التساؤلات، وغفل كثير من المسلمين عن الفرق بينه وبين الربا، هذا ما يسمى ببيع المرابحة.

نريد أن نفهم المراد ببيع المرابحة؛ لأن بيع المرابحة يأتي في المرابحات الداخلية التي قامت بدلًا من فتح الاعتماد، وفي المرابحات الخارجية عند طلب فتح اعتماد مستندي، فما معنى بيوع المرابحة؟

بيوع المرابحة تحدد حكمها في ضوء الفتوى التي أصدرها المؤتمر الثاني للمصرف الإسلامي، الذي عقد سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) ما هذه الفتوى؟

أفتى المؤتمر أنه يجوز للمصرف الإسلامي أن يبيع السلعة مرابحة بعد أن يتملكها ويحوزها، ويقع عليه تبعة الهلاك قبل التسليم، وضمان الرد بالعيب الخفي بعد التسليم.

نضرب مثلًا: المصرف اشترى سلعة من هنا أو من الخارج، وطلب أحدهم أن يشتريها مرابحة، وتم عقد وعد بيع المرابحة، ودفع العربون، وفي الطريق ضاعت السلعة أو هلكت، فمن المسئول عنها؟

المصرف الإسلامي هو المسئول؛ لأنه وإن كان تملكها (لأنه اشتراها) إلا أنه لم يحزها، فلا يستطيع أن يبيعها، ولذلك فإنها إذا ضاعت أو تلفت أو هلكت فإن المصرف هو الذي يتحملها، ولو وصلت إلى الميناء وليس عنده مخازن تكون السلعة موجودة، وليس المستندات فحسب، وإنما المستندات تكون قد وصلت من قبل، والسلعة وصلت أيضًا إلى الميناء، فيأتي الواعد للشراء قائلًا: السلعة وصلت، وأنت وعدت بالشراء، فحان الآن تنفيذ الوعد؛ فتأتي لتشتري السلعة.

إذًا، هو يبيع الآن بعد أن ملك وحاز، ولنفرض أن هذه السلعة، مثلًا، حديد للبناء، والمشتري أخذ الحديد، وجاء للبناء فظهر أن الحديد ليس بالمواصفات المتفق عليها، إن الصفقة بالكامل في هذه الحالة ترد للمصرف، والمشتري يأخذ ما دفعه كاملًا.

ولو فرضنا أن هذه السلعة آلات وأجهزة، ثم ظهر فيها عيب خفي؟

إن نص الفتوى على أنه يتعهد بضمان الرد؛ أي: رد السلعة بالعيب الخفي، وإذا كان هذا العيب الخفي يمكن إصلاحه؛ فعلى المصرف أن يتحمل نفقات الإصلاح.

وإذا كان هذا العيب الخفي جوهريًا لا يمكن إصلاحه؛ فإن السلعة تُرد للمصرف ويتحمل ثمنها بالكامل؛ ففي المرابحة تملك وحيازة وضمان للرد بالعيب الخفي.

الفرق بين المرابحة والقرض الربوي

يأتي أحد هنا ويقول: المصرف اشترى السلعة بمليون، وباعها بمليون وخمسين ألفًا، فما الفرق بينه وبين البنك الربوي الذي فتحنا عنده اعتمادًا مستنديًا، أو اعتمادًا بمليون وأخذ فوائد خمسين ألفًا؟ ما الفرق بين الاثنين؟

الفرق واضح جدًا، ونضرب مثلًا بشيء عملي حدث هنا في قطر، وكان على سفينة واحدة، والبضاعة لرجل واحد، ولكنها كانت نتيجة اعتمادين مستنديين، أحد الاعتمادين لمصرف إسلامي، والاعتماد الآخر لبنك ربوي، ماذا حدث؟ المسلم هذا ذهب إلى المصرف الإسلامي، وقال له: أنا أريد استيراد كذا؛ فقال له: أنت معك الثمن؟ قال: ليس معي الثمن؛ فقال المصرف: إذن أشتري، ثم أبيع لك مرابحة؛ السلعة كذا، ومواصفات السلعة كذا، وسأستوردها، ثم أبيعها لك.

وكان العميل يريد كمية كبيرة، ولظروف قدرها المصرف رأى ألا يوافق إلا على شراء نصفها فقط، فذهب لبنك ربوي، وقال له: أريد استيراد سلعة كذا؛ فقال: لا مانع، أفتح لك اعتمادًا مستنديًا بمبلغ كذا، وحسب عمولة فتح الاعتماد المستندي، والمبلغ الذي يدفع بفائدة ربوية تبعًا للقرض، رأس المال والقرض، ثم لا شأن له بالبضائع، وإنما يأتيه

بالمستندات فقط.

اشترى كل من المصرفين البضائع المطلوبة، وشاء الله تعالى أن يتم شحنها على سفينة واحدة، وعندما وصلت هذه السفينة إلى مدينة بورسعيد لأمر ما، تم الحجز على السفينة والبضائع.

التاجر هنا سمع بهذا، ذهب إلى المصرف الإسلامي وقال: البضائع حجزت في مدينة كذا، قال له المصرف: وما شأنك أنت؟ أنت تملك السلعة عندما نبيعها لك، هل بعناها لك؟ هي الآن ملك لنا، إذا تم الحجز هنا وضاعت السلعة فلا شيء عليك إطلاقًا، أنت لا تتحمل أي شيء، وإنما المصرف هو الذي يتحمل الثمن بالكامل؛ لأنه هو صاحب هذه السلعة، معنى هذا أن التاجر لا يفكر في جزء معين من البضائع، أصبح لا يفكر فيه، المصرف هو الذي يتصل بالدول ويتصل بشركات أخرى ويحاول أن يأتي بها، فإن لم يأت فالخسائر عليه هو.

ذهب للبنك الربوي فقال له البنك: وما شأننا نحن بهذا؟! أنت تتعامل معنا في فتح اعتماد مستندي، تريد قرضًا بفائدة، ونحن ملزمون بالمستندات، تفضل، هذه مستنداتك، خذها، والبضائع هذه ثمنها كذا، دفعت يوم كذا، إذًا أصبح عليك دين من يوم كذا بفائدة كذا، فعليك أن تدفع، وإلا كلما تأجل كلما زادت الفائدة.

بعد مدة، وبمحاولات واتصالات، أمكن أن يفرج عن البضائع، وأن تشحن من جديد، وأن تأتي، بعد هذا عندما وصلت كان المتفق عليه أن البضاعة هذه ثمنها كذا وربحها كذا، فظهر بعد إعادة الشحن من جديد والتأخير هذا أصبح المكسب المتفق عليه أقل من الثمن المدفوع، يعني، مثلًا: بضاعة بمليون والأرباح خمسون ألفًا، تكلفت أكثر من الخمسين ألفًا، ماذا يعمل المصرف الإسلامي؟ يتحمل الخسارة، ولذلك باعه كما اتفق، وأصبحت هذه السلعة التي أخذها التاجر كاملة بالثمن الذي اتفق عليه، والربح الذي اتفق عليه، وخرج المصرف الإسلامي من هذا خاسرًا من الناحية المادية، ولكنه كسب كثيرًا، حيث شاء الله عز وجل أن يتم هذا الحدث على باخرة واحدة، لتاجر واحد، في دولة واحدة، لبنكين مختلفين، فأصبح ظاهرًا أمام المسلمين الفرق بين النشاط الإسلامي وبين النشاط الربوي، وأصبح واضحًا أن بيوع المرابحة لا تعني الإقراض بأجل، وإنما بيع المرابحة قد يربح به المصرف الإسلامي؛ لأن المودعين أودعوا للربح، وأيضًا قد يخسر أكثر من الربح؛ بل قد يخسر الصفقة كاملة.

فلهذا الذي يتساءل: المصرف الإسلامي اشتراها بمليون، لماذا يبيعها بمليون وخمسين ألفًا؟

نقول: نعم، أنت عندما أودعت أموالك في المصرف الإسلامي، أودعتها لماذا؟ أودعتها للاستثمار أم لأعمال خيرية بدون مقابل؟ ألا تنتظر ربحًا لأموالك المودعة بالمصرف الإسلامي؟

قد نجد من يأتي ويقول: لماذا نطلب قروضًا من المصرف الإسلامي فلا يقرضنا؟ ويشتري الأشياء ويبيعها أكثر مما يشتريها؟

ونقول: انظر أولًا هنا: من الذي أودع أمواله في هذا المصرف؟ المسلمون الذين أودعوا أموالهم.

وماذا أرادوا من هذا الإيداع؟ هل قالوا للمصرف: خذ هذه الأموال وأقرضها لله؟ هل قالوا للمصرف اشتر وبع لله بدون مقابل؟ أم اشتر وبع بيعًا حلالًا واستثمر استثمارًا حلالًا؟

إن المصرف إذا لم يفعل هذا ولم يكسب، فمعناه أنه يقول للمودعين: ما كسبنا شيئًا؛ بل خسرنا إيجار المبنى ورواتب الموظفين، وهكذا.

لعل ما سبق يوضح الفرق بين بيع المرابحة والقرض الربوي.

تتجه المصارف الإسلامية إلى بيع المرابحة في حالة ما إذا كان العميل لا يملك ثمن البضاعة، فإذا اطمأنت إلى مركزه، ووجدت الضمانات الكافية إذا باعت، هنا تأتي إلى بيوع المرابحة، على أساس أنها تشتري وتحوز بعد أن ملكت، ثم بعد هذا تبيع.

ولو أن مصرفًا باع قبل الملك أو قبل الحيازة فتصرفه غير إسلامي.

قد يحدث هذا من بعض المصارف، قد يحدث نعم، هناك حالات بيوع في مصارف إسلامية تمت دون أن يتم التملك الفعلي والحيازة الفعلية، تم فعلًا، لماذا؟ في الغالب نتيجة خطأ في التطبيق، فمن الذي يقوم بالعمل في المصارف الإسلامية؟ وأين تلقوا دراستهم؟ ومن أين أخذوا علومهم؟ في كليات التجارة، وعلومُها أساسًا مبنية على شرح الجوانب الاقتصادية الربوية، ومعاملات البنوك الربوية، دون ذكر أن هذا ربا، فثقافتهم أساسًا ربوية، فعندما يجيئون إلى مصارف إسلامية، ويأخذون دورات لبيان الفرق بين الربا وما أباح الإسلام، ويعلمون الفرق بين هذا وذاك، فليس معنى هذا أنهم فجأة يستطيعون أن يميزوا بين الحلال والحرام.

دور الإدارة الرشيدة للمصارف، والرقابة الشرعية

وهنا يأتي دور الإدارة الرشيدة للمصارف، والرقابة الشرعية التي تقوم بعملها كما يجب، فالإدارة هنا

إذا رأت شيئًا تشك فيه، وعملية جديدة لم يسبق لها أن قامت بمثلها، أو عقدًا جديدًا لم يسبق للمصرف أن تعامل به؛ هنا لابد أن يعرض هذا الأمر، أولًا وقبل كل شيء على الرقابة الشرعية، وعلى الرقابة الشرعية أن تفتي وتقول: الحرام كذا والحلال كذا، يا أيها المصرف، اعمل كذا ولا تعمل كذا.

ولكن هذا ليس وحده هو دور الرقابة الشرعية؛ لأن دور الرقابة الشرعية أيضًا أن تنظر إلى الأعمال التي تمت، وأن تنظر في ملفات كل علمية إذا أمكن، لترى الخطوات التي تمت: هل هذه الخطوات سليمة أم لا؟ فإذا رأيت أن خطوة تمت مخالفة للشرع فهذا يعني الخطأ في التطبيق وليس في المنهج؛ لأننا نحن المسلمين لم ندرَّب أصلًا على أن نتعامل في مصارف إسلامية، ولذلك نظن أن أخطاء التطبيق لابد منها.

إن واجب الرقابة الشرعية أيضًا لا يمنع واجب المتعاملين مع المصارف الإسلامية، فأنت كمسلم عندما تتعامل مع مصرف إسلامي، وأنت تعرف شروط بيع المرابحة، إذا وجدت شيئًا مخلًا بهذا فلتقل: هذا مخل ببيوع المرابحة الإسلامية، كأن يأتي بعض المتعاملين ويقول: عملية كذا لا أطمئن لها، ويشرح كيفية العمل، فيظهر من شرحه وقوع خطأ في التطبيق.

بعض المصارف وضعت خطوات عملية لتجنب أخطاء التطبيق؛ الخطوة الأولى كذا، ابدأ كذا، ثم كذا، ثم كذا، بيوع المرابحة وضع لها عشر خطوات، خطوة تليها خطوة، تليها خطوة، وهكذا حتى يأتي الموظف فيسير تبعًا لهذه الخطوات ما دام لا يستطيع أن يعرف التطبيق تمامًا.

وأكثر من هذا أن مصارف إسلامية فكرت في استحداث شيء آخر، نتيجة أخطاء التطبيق، كأن تجعل هناك ما يسمى بالمدقق الشرعي الداخلي، وهو: موظف في داخل المصرف ملم بالجانبين: العملي والشرعي؛ لينظر في الأعمال.

مثلًا: هذه الخطوات العشر، هل كل عامل يطبق الخطوات العشر أم لا؟ فإن وجد شيئًا لا يطابق، أو شيئًا يرى أنه قد لا يطابق، أو شيئًا لم يفهم هل هو مطابق أو غير مطابق؟ فإنه يسجل هذا، وهو كمدقق شرعي داخلي ثقافته الشرعية محدودة، لكنها أكثر من ثقافة موظف المصرف العادي؛ لذا فإنه يعرض الأمر على الرقابة الشرعية، والمراقب الشرعي أو المستشار الشرعي أو المستشارون الشرعيون كلجنة يقولون: هذا العمل يصح شرعًا أم لا؟ إن هناك فرقًا جوهريًا جدًا بين بيوع المرابحة وبين القروض الربوية التي تقوم بها البنوك الربوية.

وإلى جانب المشاركة والمرابحة يمكن أن نجد حالة تختلف عما سبق: فقد يأتي للمصرف الإسلامي شخص عنده مشروعات معينة، ويستطيع فعلًا أن يقوم بهذه المشروعات، وهي تنفع المجتمع المسلم، وفي نفس الوقت تعود هذه المشروعات بأرباح، فالواجب مراعاة خدمة المجتمع المسلم وتحقيق الأرباح.

خدمة المجتمع: لأن هذا هدف أساس لإنشاء مصارف إسلامية، وتحقيق الأرباح: لأن هذا، أيضًا هدف أساس؛ لأن المودعين يريدون أرباحًا؛ لذلك فإنه إذا اطمأن المصرف إلى هذا المشروع، ووجد أن صاحبه لا يريد شريكًا معه في رأس المال، وإنما هو يريد مالًا يستثمره في هذا الجانب الذي يحقق أرباحًا معينة، وهو لا يريد أن يتملك المشروع، وإنما يريد مبلغًا من المال تبعًا للأرباح التي حققها، فهو لا يملك ما يكون به شريكًا في رأس المال، ولا يريد عقد إجارة، ولا يريد مرابحة، فماذا يعمل المصرف الإسلامي؟ هل من طريقة إسلامية؟

نعم، هناك طريقة إسلامية، وهي أن يدخل المصرف مع هذا كصاحب رأس مال، والعميل كمضارب، انظروا إلى هذه النقطة: قلنا إن المصرف يعتبر مضاربًا أو عاملًا بالنسبة للمودعين، والمودعون هم أصحاب رأس المال!!

المصرف في هذه الحالة أصبح هو صاحب رأس المال، والعميل الذي يتعامل معه أصبح هو العامل أو المضارب! فاتفق المصرف مع هذا العميل على القيام بمشروع كذا، والربح يقسم نصفين.

مثلًا: قام العميل بالمشروع، وانتهى المشروع ومضى، وظهر أنه حقق أرباحًا مقدارها كذا، أخذ العميل النصف، والمصرف أخذ النصف، المصرف أخذ النصف لمن؟ لموظفيه؟ الموظفون يأخذون راتبًا، أخذه لمن؟ للمساهمين؟ المساهمون يمثلون المصرف، أخذه هنا ربحًا يضم للأرباح العامة، بمعنى أن المصرف الإسلامي عندما يأتي في نهاية العام ويحدد الأرباح يدخل ضمن الربح هذا الجزء الذي تحقق، وبذلك يكون له نصيب من هذا الربح كمضارب، والمودعون المستثمرون لهم نصيبهم، كأصحاب رأس المال، فهذه أيضًا صورة من الصور التي تلجأ إليها المصارف الإسلامية لاستثمار أموال المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

نظرات في سيرة الرسول
صلى الله عليه وسلم

مواقف وعبر من صلح الحديبية

الحلقة الثانية

إعداد/ **جمال عبد الرحمن**

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فقد تحدثنا في الحلقة الماضية عن حرص النبي صلى الله عليه وسلم الشديد على كل خطة يعظِّم فيها حرمات الله تعالى، ولو كان صاحب تلك الخطة مشركًا، وأنه عند الملمات الشديدة لا يصلح التصدر إلا لأهل العلم والرأي والخبرة والمشورة، ورأينا تبسم النبي صلى الله عليه وسلم وعدم العبوس والتشنج أثناء حواره مع المشركين، وذلك استمالة لقلوبهم وتأليفًا، كما رأينا قبول النبي صلى الله عليه وسلم إسلام بعض من أسلم ولم يقبل أموالهم لما بدا له فيها من شبهة حرام، وكذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تحييد الخصوم وكسب تعاطفهم، بدلاً من استعدائهم واستفزازهم.

ورأينا مساومات المشركين السياسية ومحاولاتهم كسب مواقف من المسلمين؛ ثم موافقة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم على ذلك مادام ذلك غير متعارض مع المصلحة العليا وهي تعظيم حرمات الله والسعي لتبليغ دعوته وشرعه.

ونكمل الحديث هذه المرة كما سيأتي وبالله تعالى التوفيق:

وكنا قد توقفنا عندما سعى النبي صلى الله عليه وسلم لتحييد خصمه الحليس بن علقمة الكناني، وقد تم له ما أراد، ثم حدث أن جاء المفاوضون من المشركين بعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفاوضوه في الرجوع عن العمرة وعن دخول مكة عليهم إلى وقت آخر؛ حتى لا يعَيِّرهم الناس بأنه دخلها عليهم عنوة.

مفاوضات وتنازلات لنيل فتوحات:

قال الزهري: فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْص، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيه (يعني محمدًا)، فَقَالُوا: ائْتِه، فَلَمَّا أَشْرَفَ مكرز عَلَيْهِمْ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: «هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبي صلى الله عليه وسلم، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».- وهذا من التفاؤل بالأسماء الحسنةَ خاصة إذا وافق الاسم ما كان يحبه المرء ويرجوه-.

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِه: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كتَابًا فَدَعَا النَّبِيُّ صَلى الله عليه وسلم الكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيم»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّه مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلى الله عليه وسلم: «اكْتُبْ

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»،- تنازل رقم١-.

ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ».

تنازل رقم٢- والمعنى أن الكتابة من عدمها ليست هي التي ستثبت النبوة أو تنفيها، فهو رسول الله رغم أنوفهم وإن رفضوا، وقريش قد أعطت بذلك خطة فيها جور وإجحاف؛ حتى وصفها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالذلة والدَّنيَّة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن مآل خطتهم هذه سيكون لصالح المسلمين؛ دعوةً ونشرَ دين وتعظيمًا لحرمات رب العالمين.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لاَ تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً (عُنْوَةً)، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ،- تنازل رقم٣-.

فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا،- تنازل رقم٤- قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟! فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلٍ، وهو ابن - المفاوض- سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ (لا يستطيع المشي) فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ (أبوه): هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا،- وهذا رفْض وتحَدٍّ من رجل مشرك للنبي صلى الله عليه وسلم- قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «فَأَجِزْهُ (اتْرُكْه) لِي»،- رجاء وإلحاح رقم١- قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ،- رفْض آخر-، قَالَ النَّبِيُّ: «بَلَى فَافْعَلْ»- رجاء وإلحاح رقم٢، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ،- رفْض ثالث-.

انظر أخي؛ النبي صلى الله عليه وسلم سيد البشر يترجى ذلك المشرك مرات عديدة ويرفض - قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟

قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

- وهكذا استقر الأمر على استسلام المؤمنين لأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في قضية الصلح الذي هو في الظاهر إجحاف بيِّن بالمسلمين حيث رفض سهيل بن عمرو مندوب قريش أن يكتب الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، كما رفض الموافقة على دخول المسلمين مكة، وطوافهم بالبيت في عامهم ذلك، وكان من البنود الجائرة أيضًا في هذا الصلح ما جاء في قول سهيل: وعلى ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

ولذلك قال المسلمون: سبحان الله!! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ وزاد من حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيء أبي جندل رضي الله عنه يرسف بقيوده، وإصرار أبيه سهيل بن عمرو على رَدِّه إلى مكة حيث تم الصلح، ولهذا وقع المسلمون في حيرة عظيمة، وأبت نفوس كثير منهم قبول هذا الصلح، واشتاقوا إلى مناجزة أعدائهم والوصول إلى البيت ولو بالقوة، حتى قال عمر رضي الله عنه ما قال، والنبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة يقول له:» أنا رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري».

وكان أبو بكر رضي الله عنه في غاية اليقين وقمة الإيمان والاستسلام حيث كان جوابه لعمر رضي الله عنه كجواب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبعدما تبين للصحابة رضي الله تعالى عنهم أن هذا هو أمر الله تعالى؛ سلَّموا جميعا واطمأنوا لأمر لم تدرك عقولهم كل تفاصيله والغاية منه، ولكنه أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهم يؤمنون جميعًا بقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا» [الأحزاب: ٣٦].

فسارَعوا جميعًا لتنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإحلال من عمرتهم بعد ما أحل هو من عمرته. ولم ينازعوا فيما بت به من أمر الصلح مع ما فيه في الظاهر من الإجحاف بالمسلمين، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين في هذا الموقف وبين امتنانه عليهم بقوله: «إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ». يعني حينما رفضوا كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله، «فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا» [الفتح: ٢٦]. يعني شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وبهذا كان صلح الحديبية كسبًا عظيمًا لدعوة الإسلام، ولقد كان في ظاهره إجحافًا بالمسلمين في بعض بنوده ولكن نتائجه كانت انتصارًا عظيمًا للإسلام والمسلمين. وهذا يدل على تفوق النبي صلى الله عليه وسلم في التخطيط الإداري والنظر المستقبلي لدولة الإسلام. وما نتج عنه من مزايا لصالح الدعوة الإسلامية.

عَنْ قَتَادَةَ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِك، حَدَّثَهُمْ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ» [الفتح: ٢] إِلَى قَوْلِه «فَوْزًا عَظِيمًا» [النساء: ٧٣] مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَة، وَهُمْ يُخَالِطُهُمُ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ، وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَة، فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا». [صحيح مسلم ٣/ ١٤١٣].

بل قَرَأَ النَبي صلى الله عليه وسلم عَلَيْهِمْ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» [الفتح: ١]، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه أَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ». [سنن أبي داود ٣/ ٧٦].

وقال سهل بن حنيف رضي الله عنه: «فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِالْفَتْحِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ، فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَوْ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ. [صحيح مسلم ٣/ ١٤١١].

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ -: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً، أي كفارة؛ لمعارضته النبي صلى الله عليه وسلم.

الاستفادة من الرأي الآخر خير من الانسياق وراء الثقة الزائدة:

ومما هو جدير بالإشارة إليه أيضًا؛ أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو السيد المطاع بأمر الله كما قال الله تعالى: «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ» [النساء: ٦٤]، قد أعطى صلى الله عليه وسلم الفرصة لأصحابه أن يراجعوا ويسألوا ويستفسروا إذا حزبهم أمر، أو أُشكل عليهم شيء، بل ويعترضوا، وهو يفسر لهم ما أشكل عليهم، ليُعَلم الناس التفكير والتعبير عن آرائهم بحرية وعلى الملأ إذا احتاج الأمر لذلك، وما كان ذلك ليكون إلا ليقتدي به أتباعه من بعده، أما أن يكون للناس قائد وإمام وهم يَصْدُرُون عن

رأيه جميعًا دون استثناء؛ فلا ترى إلا قولاً واحدًا، واجتهادًا واحدًا، إن أصاب أصابوا جميعًا، وإن أخطأ أخطؤوا جميعًا، فهذا من المستحيلات، حيث لم يحدث ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه.

الاستفادة من مشورة النساء في أحرج الأوقات:

قَالَ الزهري: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِه: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ (تعني أن يطيعوك)، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ؛ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

وفاء النبي صلى الله عليه وسلم بالعهد ولو كان مُرًّا:

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلَت قريشٌ فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا يَا محمد، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا به حَتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ رَآهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا»؛ أي رأى شيئًا يخيفه.

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ البَحْرِ.

قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ (من المشركين) أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ، لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» [الفتح: ٢٤] حَتَّى بَلَغَ «ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ» [الفتح: ٢٦] وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ. [صحيح البخاري، كتاب الشروط ٣/ ١٩٣].

فوائد مما سبق:

١- حرص النبي صلى الله عليه وسلم على كل خطة تعظم فيها حرمات الله ولو كان مقترحها مشركًا.

٢- عند الحوادث العظيمة لا يصلح رأي العوام، بل أهل الاستنباط.

٣- رفض النبي صلى الله عليه وسلم لأموال بعض المشركين الذين أسلموا للاشتباه في مصدرها.

٤- الحرص على تحييد الخصوم بدلاً من استفزازهم واستعدائهم.

٥- التنازلات مع الخصوم إذا كانت بعيدة عن ثوابت الإسلام والعقيدة لا تعني الذلة والضعف، خاصة إذا كان من ورائها حقن دماء، وكسب أرض وأتباع مسلمين.

٦- عدم التشنج وإظهار الكراهية الشديدة للخصوم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصًا على هداية الناس.

٧- إذا توجه المرء بأعماله لله جعل الله له من الشدة فرجًا ومن الضيق مخرجًا.

وغير ذلك مما لا يسع المقام للتفصيل فيه، هدانا الله سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين.

تحذير الداعية من القصص الواهية

قصة تعرض إبليس لإبراهيم عليه السلام عند الجمرات، وبيان أن الحجر الأسود ليس يمين الله في أرضه

الحلقة (١٥٨)

إعداد/ علي حشيش

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية حتى يقف القارئ الكريم على حقيقة هذه القصة التي يتوهم منها بعض الناس أنه عندما يرمي الجمار إنما يرمي إبليس الذي تعرض لإبراهيم عليه السلام بمنى عند الجمرات حتى بلغ الأمر ببعض العوام بدلاً من أن يرمي الجمرات بالحصيات يرميها بالنعال.

قصة تعرُّض إبليس لإبراهيم عليه السلام بمنى عند الجمرات:

ولا يرمي الحاج بمنى بالحصيات متوهمًا أنه يرمي إبليس الذي تعرض لإبراهيم عليه السلام بمنى عند الجمرات كما في هذه القصة الواهية.

أولاً: متن القصة:

رُوِيَ عن مجاهد قال: قال إبراهيم: «ربنا أرِنا مناسكنا»، فأخذ جبريل عليه السلام بيده فذهب به حتى أتى به البيت، قال: ارفع القواعد، فرفع إبراهيم القواعد وأتم البنيان، فذهب به إلى الصفا فقال: هذا من شعائر الله ثم ذهب به إلى المروة فقال: وهذا من شعائر الله.

ثم أخذ بيده فذهب به نحو منى، فإذا هو بإبليس عند العقبة عند الشجرة، فقال له جبريل كبر وارمه، فكبر ورمى فذهب إبليس حتى قام عند الجمرة الوسطى، فحاذى به جبريل وإبراهيم فقال جبريل: كبر وارمه، فكبر ورمى، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة القصوى، فقال له جبريل: كبِّر وارمه، فكبر ورمى. فذهب إبليس، وكان الخبيث أراد أن يُدخل في الحج شيئًا فلم يستطع.

فذهب حتى أتى به المشعر الحرام فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات، فقال: هذا عرفات، قد عرفت ما أريتك؟ قال: نعم ثلاث مرات.

قال: فأذِّن في الناس بالحج، فقال: وكيف أؤذن؟ قال: قل: يا أيها الناس، أجيبوا ربكم- ثلاث مرات- فأجاب العباد: لبيك اللهم ربنا لبيك- مرتين- فمن أجاب

إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاجّ».

ثانيا: التخريج:

هذا الخبر الذي جاءت به القصة أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٦١٥/٢- ط الصميعي- القصيم) (ح٢٢٠). قال: أخبرنا عتاب، أخبرنا خُصيف عن مجاهد قال: قال إبراهيم: «ربنا أرنا مناسكنا». فأخذ إبراهيم عليه السلام بيده...» القصة.

ثالثا: التحقيق:

هذه القصة منكرة، فهي من رواية عتاب بن بشير الجزري عن خُصيف بن عبد الرحمن الجزري.

وهنا علة خفية بيّن قاعدتها الحافظ ابن رجب في «شرح علل الترمذي» (٦٢١/٢) القسم الثاني: «في ذكر قوم من الثقات لا يذكر أكثرهم غالبًا في أكثر كتب الجرح والتعديل، وقد ضعف حديثهم إما في بعض الأوقات أو في بعض الأماكن، أو عن بعض الشيوخ»، وفي النوع الثالث من هذا القسم قال: «قوم ثقات في أنفسهم، لكن حديثهم عن بعض الشيوخ فيه ضعف، بخلاف حديثهم عن بقية شيوخهم».

قلت: بسبب الجهل بهذه القاعدة زلت أقدام وضلت أفهام، وظن الكثير أن الراوي إذا كان من رجال البخاري ثبت الحديث، ولكن هيهات فلا بد أن يعرف الطريقة التي روى بها البخاري الحديث؛ فربما روى له البخاري عن شيخ هو في نقله عن هذا الشيخ ثقة، لكنه ضعيف في نقله عن شيخ آخر؛ لذلك لا يمكن أن يروي له البخاري عنه.

وبتطبيق هذه القاعدة:

١- نجد أن عتاب بن بشير الجزري من رجال البخاري الذي روى لهم.

٢- ولكن بالبحث في رواة أسانيد صحيح البخاري من الحديث الأول: حديث الأعمال حتى آخر حديث رقم (٧٥٦٣) حديث «الميزان» لم نجد سند من رواية عتاب بن بشير الجزري عن خُصيف بن عبد الرحمن الجزري.

٣- وبهذا تتبين العلة حيث قال الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٨٤/٧- دار الفكر): «قال الجوزجاني عن أحمد: أحاديث عتاب عن خصيف منكرة».

٤- ولذلك قال الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (١٦٧٥/٤٦٢/٥): «وقال النسائي فيما قرأت بخطه عتاب ليس بالقوي ولا خصيف».

٥- وقال الحافظ ابن عدي في «الكامل» (٣٥٧/٥) (١٥١٧/٥٤٩)- ط دار الفكر- حدثنا ابن أبي عصمة، حدثنا أحمد بن حميد سألته يعني أحمد بن حنبل عن عتاب بن بشير فقال: «روى بآخره أحاديث منكرة، ولا أراها إلا من قبل خصيف». اهـ.

وأخرج ابن عدي وأحمد بن حنبل قال: «عتاب بن بشير روى عن خصيف نسخة، وفي تلك النسخة أحاديث ومتون أُنكرت عليه».

٦- وهذه القصة «قصة إبليس والتعرض لإبراهيم عليه السلام عند الجمرات» أخرجها الأزرقي في «أخبار مكة» (٦٩/١)، (١٧٥/٢-١٧٦) قال: حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج أخبرني خصيف بن عبد الرحمن عن مجاهد به.

قلت: ولقد بينا حال خصيف وروايته للمنكرات، وهذا الطريق يزداد ضعفا على ضعفه بعثمان بن ساج وهو عثمان بن عمرو بن ساج، نقل الحافظ الذهبي في «الميزان» (٥٥٤٦/٤٩/٣) عن أبي حاتم قال: لا يحتج به، وبهذا تصبح هذه القصة منكرة واهية.

الحجر الأسود ليس يمين الله في أرضه

وهذا الاعتقاد مبني على حديث غير صحيح، كان سببًا في التزاحم الشديد وإيذاء الطائفين لمحاولة لتقبيل الحجر الأسود اعتقادًا أنه يقبّل يمين الله حيث بُنِيَ هذا الاعتقاد على حديث يُروى عن جابر مرفوعًا: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض يُصافحُ به عباده».

قلت: وهذا الحديث لا يصح، أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٢٨/٦) قال: أخبرنا علي بن محمد بن علي الأيادي، أخبرنا أحمد بن يوسف بن خلاد العطار حدثنا الحارث بن محمد بن إسحاق بن بشر الكاهلي حدثنا أبو معشر المدائني عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض...» الحديث.

ومن طريقه أخرجه الإمام ابن الجوزي في «العلل» (٥٧٥/٢) (ح٩٤٤) قال أخبرنا أبو منصور القزاز قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي – وهو الخطيب البغدادي- به.

وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٤٢/٢) (١٧٢/١٧٢) قال: حدثنا علي بن محمد بن حاتم، حدثني محمد بن علي الأزدي حدثنا إسحاق بن بشر به.

١- قال الإمام ابن الجوزي بعقب روايته لهذا الحديث: «هذا حديث لا يصح، وإسحاق بن بشر قد كذَّبه أبو بكر بن أبي شيبة وغيره، وقال الدارقطني: هو في عداد من يضع الحديث، قال: وأبو معشر ضعيف». اهـ.

٢- وأخرج الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٢٨/٦) من طريق محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي قال: سمعت أبا بكر بن أبي شيبة – مررنا على إسحاق بن بشر- فقال لي أبو بكر: من هذا؟

قلت: هذا الكاهلي. قال أبو بكر: أبو يعقوب كذاب.

قال الحضرمي: ولا أحفظ أن أبا بكر قال لي في أحد كذاب غيره». اهـ.

قلت: وأبو يعقوب كنيته إسحاق بن بشر الكاهلي.

وقال الحافظ ابن عدي في «الكامل» (٣٤٢/١): إسحاق بن بشر الكاهلي هو في عداد من يضع الحديث.

قلت: وعلة أخرى فوق هذا الكاهلي الكذاب شيخه أبو معشر المدائني.

١- قال الإمام المزي في «تهذيب الكمال» (٦٩٨٠٩/٤٧/١٩: «نجيح بن عبد الرحمن السندي أبو معشر المدني روى عن محمد بن المنكدر وآخرين.. وروى عنه إسحاق بن بشر الكاهلي». اهـ.

٢- قال الإمام الذهبي في «الميزان» (٩٠١٧/٢٤٦/٤): نجيح أبو معشر السندي الهاشمي مولاهم المدني صاحب المغازي.

أ- قال ابن معين: ليس بقوي، كان أميًا يُتقى من حديثه المسند.

ب- كان يحيى بن سعيد يستضعفه جدًا.

٣- قال الإمام البخاري في «الضعفاء الكبير» (٣٨٠): «نجيح أبو معشر منكر الحديث».

قلت: وفي تنبيهات الإمام السيوطي في «التدريب» (٣٤٩/١) قال: «البخاري يطلق: فيه نظر: وسكتوا عنه، فيمن تركوا حديثه، ويطلق (منكر الحديث) على من لا تحل الرواية عنه».

٤- وقال الإمام النسائي في «الضعفاء والمتروكين» (٥٩٠): «نجيح أبو معشر ضعيف مدني».

٥- وذكره الإمام الدارقطني في «الضعفاء والمتروكين» (٥٥٠) قال: قلت: فيظن من لا دراية له بمنهاج المحدثين من علماء الجرح والتعديل أن الإمام الدارقطني سكت عنه حيث إنه قال: «نجيح أبو معشر»، ولم يذكر فيه صفة من الجرح ولا يدرى أن منهج الإمام الدارقطني في كتابه «الضعفاء والمتروكين» قد بيّنه الإمام البرقاني حيث قال: «طالت محاورتي مع أبي منصور إبراهيم بن الحسين بن حمكان لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني عفا الله عني وعنهما في المتروكين من أصحاب الحديث، فتقرر بيننا وبينه على ترك من أثبته على حروف المعجم في هذه الورقات». اهـ.

قلت: نستنتج من إثبات نجيح أبي معشر تحت رقم (٥٥٠) أن مجرد إثبات الاسم هو تقرير من الأئمة الثلاثة: البرقاني وابن حمكان والدارقطني على ترك نجيح أبي معشر.

٦- أخرج الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٦٠/٣) قال: أخبرنا الهمداني قال: حدثنا عمرو بن علي قال: كان يحيى القطان لا يحدث عن أبي معشر المدني، ويستضعفه جدًا، ويضحك إذا ذكره». اهـ.

٧- ثم بيّن جرحًا آخر في أبي معشر فوق هذا الضعف الشديد وهو الاختلاط؛ حيث قال: «وكان ممن اختلط في آخر عمره، وبقي قبل أن يموت سنتين في تغير شديد لا يدري ما يحدث به، فكثرت المناكير في روايته مِن قِبل اختلاطه؛ فبطل الاحتجاج به». اهـ.

٨- ولكي يرى القارئ الكريم غير هذا الحديث المنكر لأبي معشر ما بينه الحافظ الذهبي في «الميزان» (٤/٢٤٦/٩٠١٧) قال: ومن مناكير أبي معشر:

أ- عن عائشة مرفوعًا: «لا تقطعوا اللحم بالسكين فإنه من صنع الأعاجم».

ب- عن أبي معشر عن الحويرث قال: «مكث موسى بعد أن كلمه الله أربعين يومًا لا يراه أحدٌ إلا مات» رواه الحاكم في مستدركه.

ج- وعن أبي هريرة مرفوعًا: «لا تقولوا رمضان، فإن رمضان اسم من أسماء الله، ولكن قولوا: شهر رمضان».

قلت: هذه بعض مناكيره لذلك قال الإمام البخاري -أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله-: «نجيح أبو معشر منكر الحديث»، وهذا المصطلح عند الإمام البخاري يدل على الجرح الشديد كما بينا معناه آنفا.

٩- وذكره الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (١٠/٣٧٥) قال: «نجيح بن عبد الرحمن السندي أبو معشر المدني»، ثم نقل أقوال أئمة الجرح والتعديل فيه كما ذكرناها آنفًا، ثم زاد:

أ- قال محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن علي بن المديني: «كان ضعيفًا».

ب- وقال الساجي: «منكر الحديث».

جـ- وعن يحيى بن معين: «كان أميًا، ليس بشيء».

فحديث «الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح به عباده» حديث لا يصح كما بيّن أئمة الجرح والتعديل، وآفته إسحاق بن بشر الكاهلي الكذاب في عداد من يضع الحديث، وكذلك شيخه أبو معشر نجيح ضعفه الأئمة جدًا، وهو متروك منكر الحديث ليس بشيء كما بينا آنفًا.

قلت: وبهذا التحقيق لا يصلح مع هذا الضعف الشديد متابعات ولا شواهد، فقد أخرج ابن عساكر (١٥/٩٠/٢) من طريق أبي علي الأهوازي هذا الحديث، وأبو علي الأهوازي متهم بالكذب، فالحديث باطل، ولا يزيد الطريق الأول إلا وهنًا على وهن، هذا وذكره الشيخ الألباني في الضعيفة (ح٢٢٣) وبيّن نكارته.

قلت: وبهذا يتبين أن تقبيل الحجر الأسود ليس تقبيلاً ولا مصافحة ليمين الرحمن.

ولقد بيّن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تقبيل الحجة هو اتباع للنبي صلى الله عليه وسلم، وأخْذ المناسك عنه فقد ثبت في صحيح البخاري (ح١٦٠٥) من حديث زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للركن: «أَمَا وَاللَّه، إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ. فَاسْتَلَمَهُ».

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري (ح١٦١٠) من حديث زيد بن أسلم عن أبيه رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَبَّل الحجر، وقال: «وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ».

قلت: والحديث متفق عليه، حيث أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» (ح١٢٧٠)، ولقد قال الإمام النووي في «شرحه لصحيح مسلم» لهذا الحديث: «وأما قول عمر رضي الله عنه: (لقد علمت أنك حجر وإني لأعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع) فأراد به بيان الحثّ على الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في تقبيله ونبَّه على أنه لولا الاقتداء به لما فعله». اهـ.

قلت: وبهذا يتبين الانقياد للأمر إظهارًا للعبودية والامتثال من غير حظّ للعقل والنفس فيه، فحجر بمكة يقبَّل ويُعظم، وحجر في منى يُرجم ولا يُقبَّل.

واقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا يقبل الحجر بمكة على أنه يمين الله في الأرض يصافح به عباده، فهذا حديث منكر.

هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

المذهب الوسطي لأبي الحسن الأشعري في توحيد الصفات

تراجع الشهرستاني - إمام علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة - وإعلانه الندم على ما فاته من صواب ما كان عليه الأشعري وسلف الأمة

الحلقة الثالثة عشرة

إعداد/ **أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي**
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فممن أبدوا ندمهم واضطرابهم على ما فاته من صواب ما كان عليه سلف الأمة في قضية توحيد الصفات: الشهرستاني أبو الفتح الفقيه المتكلم الأصولي العلامة المحدث المفسر محمد تاج الدين بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشافعي، كان إمامًا في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، وكان يلقب بالأفضل، ويوصف بدماثة الخلق وجميل الصفات ولين الجانب وطيب العشرة وأدب الحوار وحسن اللفظ والعبارة والخط، وهذا ما تشهد به مؤلفاته وما ورد عنه من مناظرات ومحاورات، فلم تُحفظ عنه كلمة نابية أو معاملة سيئة، ولا ما ينبئ عن سوء خُلق أو قبح لفظ.. قال ياقوت في وصفه: إنه «الفيلسوف المتكلم، صاحب التصانيف، كان وافر الفضل، كامل العقل، ولولا تخبطه في الاعتقاد ومبالغته في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم، لكان هو الإمام»، (ت ٥٤٨).

مذهب الشهرستاني العقائدي هو مذهب الأشاعرة وقد اضطرب فيه:

وقد صرح هو بذلك في بعض كتبه، ويكاد يجمع المترجمون له عليه.. بل إن أشهر كتبه: (الملل والنحل) يدل دلالة واضحة على ذلك.. ثم جاء كتابه (نهاية الإقدام في علم الكلام) لينصر من خلاله مذهب أبي الحسن الأشعري بأدلته وحججه ويناقش الآراء المخالفة له ويرد عليها، ويعلن فيه أنه قد آب إلى دين الفطرة والعجائز، بل طفق في مقدمته يذم علم الكلام، ويحذر منه، ويوضح أن علم الكلام إنما يورث الحيرة والندم وليس لدى أربابه يقين في عقيدتهم، فكان أن تراجع بهذا عن بعض شبهاته إلى مذهب السلف وإن لم يمحضه؟، واعترف بالاضطراب والندم والحيرة نتيجة تعمقه في الفلسفة وعلم الكلام، وإزاء خوضه في الإلهيات عن طريق الفلاسفة والمتكلمين؛ لكونه لم يجد لديهم إلا الحيرة والندم وقد عبر عنهما بقوله: «لم نجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم».. وقد أنشد هو في أول كتابه المذكور وتحديداً ص ٣ بيتين في وصف حاله وحال عموم أهل الكلام قائلاً:

«لقد طفت في تلك المعاهد كلها
وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر
على ذقن أو قارعا سن نادم»

كما أورد في نفس الكتاب ص٤ قوله: «عليكم بدين العجائز فهو من أسنى الجوائز».. وحكى له ذلك ونقل أبياته السالفة الذكر: شيخ الإسلام في (العقل والنقل) ١/ ١٥٩و(الحموية) ص٧ ومجموع الفتاوى ٤/ ٧٣ وابن القيم في الصواعق ص ٩وابن أبي العز في شرحه للطحاوية ص ١٤٨، والشنقيطي في الإقليد ص ٧٧، ٧٨ وأضواء البيان ٧/ ٣٢٠.

ومن سديد ما فاه به، واضطر فيه للتوسع في ذكر السلوب ليرد - من خلاله وفيما يبدو -

على مخالفيه، قوله في نهاية الإقدام ص ١٠٣: «إن الله سبحانه لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها بوجه من وجوه المشابهة والمماثلة، «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » (الشورى/ ١١)، فليس الباري سبحانه بجوهر ولا جسم ولا عرض، ولا في مكان - يعني: بالمعنى الوجودي التحيزي والمتبادر إلى الأذهان - ولا في زمان، ولا قابل للأعراض، ولا محل للحوادث».

وتجدر الإشارة إلى أن اضطرابه - الذي بدا واضحاً في كتابه (الملل والنحل) - إنما كان من جنس اضطراب قرينه وسلفه الإمام أبي المعالي إمام الحرمين ابن الإمام الجويني ت ٤٧٨- رحمة الله على الجميع - فقد كان هو الآخر يظن أن معتقد السلف في الصفات هو تفويض المعنى والكيف، ومن كلام الشهرستاني الذي يفيد ذلك قوله في (الملل والنحل) ص ٨٣، ٨٤: «اعلم أن السلف من أصحاب الحديث لما رأوا توغل المعتزلة في علم الكلام ومخالفة السنة التي عهدوها من الأئمة الراشدين، ونصرَهم جماعة من أمراء بني أمية على قولهم بالقدر، وجماعة من خلفاء بني العباس على قولهم بنفي الصفات وخلق القرآن، تحيَّروا في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في متشابهات آيات الذكر الحكيم وأخبار النبي الأمين.. فأما أحمد بن حنبل وداود بن علي الأصفهاني وجماعة من أئمة السلف فجرَوا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث مثل: مالك بن أنس ومقاتل بن سليمان، وسلكوا طريق السلامة فقالوا: (نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات).. وقالوا: (إنما توقفنا في تفسير الآيات وتأويلها لأمرين:

أحدهما: المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى: «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ».. (آل عمران: ٧»، فنحن نحترز عن الزيغ.

والثاني: أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق، والقول في صفات الباري بالظن غير جائز، فربما أولنا الآية على غير مراد الله فوقعنا في الزيغ، بل نقول كما قال الراسخون في العلم: كل من عند ربنا، آمنا بظاهره وصدقنا باطنه، ووكلنا علمه إلى الله تعالى، ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك، إذ ليس ذلك من شرائط الإيمان وأركانه)».

فالشهرستاني برضائه وسوقه هذا الكلام وإن نجا من فتنة التأويل الذي كان عليه متأخرو الأشاعرة، إلا أنه يرى أن السلف كانوا على تفويض علم ما تشابه إلى الله، وكما هو متعالم فإن هذا هو مذهب المفوضة كما سبق أن قررنا إبان الحديث عما كان عليه ابن الجويني.

وقد ذكرنا هنالك «أن إمام الحرمين وإن سلِم - بما ذكره - من شائبة التأويل، إلا أن عبارته بحق تفويض الصفات موهمة، إذ لو كان مراده من التفويض تفويض كيفيات تلك الصفات دون معناها المتعارف عليه واللائق بحقه تعالى، فمُسَلم به لكون هذا هو معنى إثبات السلف، بل والمبتنى على أساس قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » (الشورى/١١)..

أما إن أراد بالتفويض: (تفويض المعاني المفهومة لتلك الظواهر) على ما هو المفاد من كلامه، فليس هذا هو مذهب السلف، فإن السلف يفهمون معاني تلك الصفات التي وردت بها النصوص ويعتقدونها، ولكنهم لا يعلمون كيفياتها.. وعليه، فإنه لا يُقبل من أبي المعالي هنا - ولا كذلك من مثله - ما يُقبل من أئمة السلف من إمرارهم الصفات، وذلك نظراً لما بين المقصودين من فرق، ونظراً لما كان عليه حاله قبل التراجع من خلط وانشغال بعلم الكلام، فلعله لكل ذلك فاته الصواب على وجه الدقة، فيكون قد أخطأ فيما صرح به من أمر التفويض وأصاب فيما كف عنه في أمر التأويل»[ينظر هامش التوحيد لابن منده ١/ ٩٠].

وذكرنا ساعتها أن مما يدل على صدق

توجه إمام الحرمين في ترك ما كان عليه الخلف جملة وتفصيلاً، قوله عقب مقولته الملبسة هذه وقبيل وفاته: «قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، وركبت البحر الخضم - كل ذلك في طلب الحق وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد - وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه - يعني: علم الكلام - وغصت في كل شيء نَهى عنه أهل العلم، كل ذلك في طلب الحق وفراراً من التقليد، والآن رجعت إلى كلمة الحق واعتقدت مذهب السلف، فإن لم يدركني الله بلطفه وأموت على دين العجائز وتختم عاقبة أمري على الحق وكلمة الإخلاص، وإلا فالويل لابن الجويني».

وكذا هو الحال تماماً بالنسبة للإمام الشهرستاني، فما أشبه حاله بحال إمام الحرمين أبي المعالي.. وما أنشده مما سبق أن نقلته عنه من أبيات، خير شاهد على مدى تشابه ما بين الرجلين.. وباعتقادي أن هذا هو مصدر الاضطراب والحيرة لديهما.

عموم بلوى متأخري الأشاعرة في القول بالتفويض ونسبته إلى السلف ووقوعهم بذلك في التناقض: وما ذكراه هو في الحقيقة مما عمت به البلوى، فقد غلب على ظن البعض من متأخري علماء الكلام ومن لا يزال متأثراً - عن جهالة - بمعتقدهم، أو متشبثاً - في إصرار وعناد - برأيهم، أن التفويض في معنى الصفات هو طريق السلف.. ويُذكر أن الشهرستاني كان من أوائل من ذكر أن مذهب السلف هو التفويض موافقاً في ذلك إمام الحرمين أبا المعالي بن عبد الله الجويني، وقد تبعهما فيه الفخر الرازي والسيوطي، ثم شاع هذا بين الباحثين قديماً وحديثاً وراج حتى اتخذت هذه العبارات شبهة تقرر من خلالها أن مذهب السلف هو التجهيل والتفويض وليس الإثبات.

قال الشهرستاني في (الملل والنحل) ص ٧٤ - فيما نتج عن تناقض ذلك لما عليه سلف الأمة -: «ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف، فقالوا: لا بد من إجرائها على ظاهرها فوقعوا في التشبيه الصرف، وذلك على خلاف ما اعتقده السلف»، فقد أفاد في هذا النص أن إجراء آيات الصفات على ظاهرها هو زيادة على مذهب السلف، وأن هذا لم يكن طريقهم ولا مرادهم في فهم صفات الله تعالى، لكون القول بإجراء الصفات على ظاهرها مؤد - على ما ظنه - إلى التشبيه الصرف.

وفضلاً عن عدم صحة ما ذكره في هذا الصدد، فقد ناقض نفسه حين قال قبل ذلك بنفس الصفحة: «اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة، و.. لا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه ولا يؤولون ذلك»، ثم ذكر أن ممن يقول بهذا مالك بن أنس وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وداود الظاهري ومن تابعهم، ولا يعني ذلك - على حد فهمه - إلا اعتقاد أن باقي أئمة السلف: على وجود فارق بين صفات الذات والصفات الخبرية، لوجوب تأويل الأخيرة حتى لا يتوهم منها التشبيه.

ويحق لنا هنا - ونحن نشير إلى أن التفويض لم يكن بحال من الأحوال مذهباً للسلف، وإلى أن المتشابه إنما كان مقصوراً لديهم على كيفيات الصفات دون معانيها - أن نتساءل: أليس ما ذكره الشهرستاني من القول بالتفويض ومن أن المراد منها غير الظاهر، هو من قبيل ذكر الشيء وضده؟، وأليس ذلك وما أفاده من نسْبة كلٍ للسلف - وعلى رأسهم مالك وأحمد والثوري وداود وغيرهم - هو التناقض بعينه؟، وألا يكفي ويشهد لما نسبه مؤخراً للسلف - وفي مقدمتهم من ذكرنا - من إثبات لصفات الذات وصفات الفعل ومن إجراء للصفات جميعاً على ظاهرها دون ما تمثيل ولا تشبيه، أن يكون هو الحق الذي لا ينبغي الحياد عنه؟، وأليس ما ذكره في شأن صفات الفعل والصفات الاختيارية وإيهام أنهما شيئان مختلفان عن صفات الذات مدعاة للتفرقة بين صفات مثبتة وأخرى مثبتة كذلك؟[ينظر كتابنا

(موقف السلف من تفويض الصفات) ص ٩٨: ١٠٠].

تحرير قول الشهرستاني للوصول من خلاله إلى صحيح ما كان عليه سلف الأمة:

إن هذه الأسئلة جميعاً كانت مثار تعجب واستغراب لدى شيخ الإسلام - رحمه الله - فكان جوابه عنها في الحموية ص ٦: ٨ ما نصه: «إن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم - يعني بقولهم: إن طريقة السلف القائلة بالتفويض أسلم وطريقة الخلف أحكم وأعلم - إنما أوتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، وأنهم كانوا بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (البقرة:/ ٧٨)، وأن طريقة الخلف استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر»، يعني: دون البحث في معنى مرادات الله منه.

وفي رد ذلك الذي وقع فيه الشهرستاني وأضرابه يقول - رحمه الله -: «وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.. وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى وهي التي يسمونها طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف وهي التي يسمونها طريقة الخلف، فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع، فإن نفي أن يكون للصفات معانٍ إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بيناتٍ وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلام عن مواضعه، فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم واعتقاد أنهم كانوا قوماً أميين بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وان الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله».

يقول: «ثم إن هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة، إذ كيف هؤلاء المتأخرون.. المفضولون المسبوقون، أعلم بالله وأسمائه، وأحكم في باب ذاته وآياته، من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة؟

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة - لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته - من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟، أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم، أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟»إ.هـ من كلام ابن تيمية.

وكلامه بهذا فضلاً عن كونه رداً على من فهم عن السلف التفويض بطريق الخطأ، هو كذلك رد فاحم على من يرى أن رأي الخلف أعلم وأحكم.. وليس ما سبق فقط هو الذي يدعو للدهشة وإنما يدعو إليها أيضاً أن من أتوا بعد الشهرستاني أو كان قريب العهد به من نحو ابن الجويني والغزالي، بدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولم يقفوا على نهاية أقدامهم، فوقعوا من ثم فيما وقع فيه سابقوهم، على الرغم من اشتهار أمر تراجع أولئك السابقين عما خاضوا فيه من مسائل الصفات!!.. والله نسأل أن يبصرنا بعيوبهم وعيوبنا، لنلقاه تعالى بقلوب سليمة من دخن ما وقع فيه أهل الكلام والاعتزال، إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.

وللحديث بقية إن شاء الله
والحمد لله رب العالمين.

من أنواع التربية المطلوبة:

التربية الإيمانية

الحلقة الثانية

إعداد/ **د. أحمد فريد**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد تكلمنا في اللقاء السابق عن التربية الإيمانية، وذكرنا أن من أهم وسائل الارتقاء بالأحوال الإيمانية: تعميق المعرفة بالله عز وجل، وكذلك تدبر القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة، ونكمل ما بدأناه في ذلك فنقول:

٣- ومما يتربى به الإيمان في قلوب شباب الإسلام: معرفة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد كان يكفي مَن عاصره أن ينظر في وجهه الكريم فيرى علامات الصدق ودلائل النبوة كما قال حسان:

لو لم يكن فيه آيات مبينة
كانت بديهته تاتيك بالخبر

وكما حدث من عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وكان حبراً من أحبار اليهود، فلما هاجر النبي إلى طيبة الطيبة، وذهب ونظر إلى وجهه، ثم قال: « أشهد بأن وجهك ليس بوجه كاذب»، ودخل في الإسلام، وصار من خيار أصحاب النبي وبشره النبي بالجنة دار السلام.

فمعرفة النبي صلى الله عليه وسلم وما جُبل عليه من الأخلاق الكريمة، وما أيده الله عز وجل به من المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، ومعرفة سيرته ، وما أيده الله عز وجل به من الانتصارات، والعصمة من الناس، ومن المحبة في قلوب أتباعه، فكل ذلك مما يزيد إيماننا بالله عز وجل وبرسوله ، كما قال الله عز وجل: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ) (المؤمنون:٦٩)، فمعرفته توجب الإيمان به وتصديقه ، وقال تعالى:(قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)(سبأ: ٤٦).

فدراسة السيرة النبوية، والمعجزات ودلائل النبوة، ومعرفة شرف نسبه وأخلاقه وهديه، من أعظم أسباب زيادة الإيمان. [باختصار وتصرف من « شجرة الإيمان « للدكتور أحمد فريد (ص: ٤١-٤٣)].

٤- ومما يتربى به الإيمان في قلوب شباب الصحوة: دراسة محاسن الإسلام:

إذا تدبر العبد محاسن الإسلام، وعلى أنه دين الله الخالد الذي ارتضاه للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ازداد إيمانه بالله وبرسوله ، قال تعالى: (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ) (آل عمران:١٩).

وقال تعالى: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) (آل عمران:٨٥).

ولما أكمل الله عز وجل على نبيه الدين، وتم

التشريع، نزل قول الله عز وجل:
(ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا) (المائدة:٣).

فمهما تدبر العبد محاسن الإسلام؛ علم أن الله عز وجل لم يأمر بأمر إلا وفيه صلاح عاجل وآجل، قال تعالى: (يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ) (المائدة: ٤).

وقال تعالى: (قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ) (الأعراف: ٣٣).

يقول الشيخ عبد العزيز محمد السلمان:

« كلما تدبر العقال اللبيب أحكام الإسلام قوي إيمانه وإخلاصه، وعندما يتأمل ما يدعو إليه هذا الدين القويم يجده يدعو إلى مكارم الأخلاق، يدعو إلى الصدق، والعفاف، والعدل، وحفظ الجوار، وإكرام الضيف، والتحلي بمكارم الأخلاق، يدعو إلى تحصيل التمتع بلذائذ الحياة في قصد واعتدال، يدعو إلى البر والتقوى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والإثم والعدوان، لا يأمر إلا بما يعود على العالم بالخير والفلاح، ولا ينهى إلا عما يجلب الشقاء والمضرة للعباد ». [باختصار وتصرف من رسالة «محاسن الدين الإسلامي» (٥-١٢) الطبعة الثانية].

٥- ومما يتربى به الإيمان في قلوب الشباب: التفكر في مخلوقات الله عز وجل:

قال تعالى:(إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض» أي: في إيجادها على ما هما عليه من الأمور المدهشة، تلك في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار وأشجار، ونبات وزروع، وثمار وحيوان، ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص: « وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ» أي: في تعاقبهما، وكون كل منهما خلفة للآخر، بحسب طلوع الشمس وغروبها، أو في تفاوتهما بازدياد كل منهما انتقاص الآخر، وانتقاصه بازدياده: «لآيَات» أي: لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته، وباهر حكمته. والتنكير للتفخيم كمّاً وكيفاً، أي: كثرة عظيمة: «لأُوْلِي الألْبَاب» أي: لذوي العقول المجلوّة بالتزكية والتصفية بملازمة الذكر دائماً كما قال تعالى: (ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ)(آل عمران: ١٩١).

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ» أي: فلا يخلو حال من أحوالهم عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر في تصفية الباطن. فالمراد: تعميم الذكر للأوقات، وعدم الغفلة عنه تعالى. وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر، ليس لتخصيص الذكر بها، بل لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنْسَان غالباً: «وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَات وَالأَرْض» أي: في إنشائهما بهذه الأجرام العظام، وما فيهما من عجائب المصنوعات، وغرائب المبتدعات، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، فيعلموا أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً، لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها تعالى. كما قيل:

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطلاً»، أي: ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً، عارياً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل منتظماً لحكم جليلة، ومصالح عظيمة. من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك، ووجوب طاعتك، واجتناب معصيتك، وأن يكون مداراً لمعايش العباد، ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد. [باختصار من «محاسن التأويل» للقاسمي (١/٣٢١-٣٢٤) ط. دار الفكر].

وقال تعالى: (وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ) (الذاريات: ٢٠-٢١).

وكان السلف رضي الله عنهم يفضلون تفكر ساعة على قيام ليلة؛ لأن التفكر ساعة يثمر في القلب من الإيمان بعظمة الله وقدرته وجلاله والخوف منه أكثر مما يثمر قيام ليلة. ولما سألت أم الدرداء عن أكثر عبادة أبى الدرداء قالت: « كان أكثر عبادته التفكر ».

٦- ومما ينبغي الاهتمام به في تربية الإيمان: الإكثار من النوافل بعد استكمال الفرائض:

قال الله تعالى في الحديث القدسي: « وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » [صحيح البخاري ٦٥٠٢].

فأول ما يقرب إلى الله عز وجل أداء الفرائض كما قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وحسن النية فيما عند الله عز وجل».

فالفرائض هي رأس المال، فإذا استكمل العبد فرائضه، وأراد أن يترقى في درجات الإيمان وولاية الرحمن عز وجل يفتح على نفسه أبواب النوافل، والنوافل هي ما عدا الفرائض من أجناس الطاعات.

قال العلماء: « ما بال النوافل كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله عز وجل دون الفرائض؟ وأجاب بعضهم: بأن العبد يفعل الفريضة خوف العقوبة ورجاء الأجر، أما النوافل فلا عقوبة في تركها ؛ فيفعلها العبد بإخلاص نية التقرب والتحبب إلى الله عز وجل، فلما خلصت النية في النوافل كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله عز وجل دون الفرائض فينبغي على المربي أن يهتم بتحبيب العبادات إلى الشباب بترغيبهم في قيام الليل، وتلاوة القرآن، والأذكار الموظفة وغير الموظفة، والصيام وقضاء حوائج الناس، وطلب العلم النافع حتى يكون ذلك شغلهم الشاغل، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، فاللسان إذا لم يتحرك بذكر الله عز وجل تحرك بالغيبة والنميمة والبذاءة واللغو وغير ذلك، وإذا لم تشغل الجوارح والأوقات بالطاعات شغلت بالمعاصي والعثرات ؛ فلا شك في أن شجرة الإيمان في قلب العبد تروى بالصيام والقيام وتلاوة القرآن وتتفرع فروعها في أرجاء قلبه، وتثمر الثمرات اليانعة الطيبة، فيجد العبد حلاوة الإيمان ومحبة الرحمن، وصدق الله إذ يقول: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (الأنفال: ٢٤).

٧- ومما يتربى به الإيمان في قلوب المسلمين: أن يعيش العبد في أجواء إيمانية، ويتنفس هواء الإيمان، وأن يتباعد عن أجواء المعاصي والشهوات والشبهات:

فلا شك في أن الإيمان ينمو ويترعرع في أجواء الإيمان، وعند تنفس هواء الإيمان في مجالس الذكر، وصلاة الجماعة وعيادة المرضى وتشييع الجنائز، والتردد على الأماكن المقدسة للحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي.

ولا شك كذلك في أن الإيمان يضعف أو يضمحل إذا تعرض العبد لأجواء الإباحية والفجور والتبرج والسفور ؛ فعلى المربين أن يهتموا بتحبيب أجواء الإيمان إلى قلوب شباب الصحوة، وكذا عليهم تحذيرهم والتأكيد عليهم في العبد عن أماكن الكفر والفسوق والعصيان ؛ كأماكن الإباحية والفجور والسفور. قال بعضهم: ليس شيء أضر على قلب العبد من مجالسة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم.

ومن فضل الله عز وجل على العبد أن يوفقه الله إلى الصحبة الصالحة، كما قال بعض السلف: « إن من نعمة الله على الشباب إذا نسك، أن يُوفقه إلى صاحب سنة يحمله عليها ».

وكذا من فضل الله عز وجل على العبد أن يوفقه إلى الأزمنة الشريفة والأمكنة الشريفة وأن يوفقه إلى الطاعة والعبادة، فنسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته وأن ييسر لنا أسباب رحمته وجنته.

٨- ومما يتربى به الإيمان في قلوب الشباب: كثرة ذكر الله عز وجل:

قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت» [البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩)].

وهذا إشارة إلى أن الذكر من أعظم أسباب حياة القلب، ونماء الإيمان فيه، وكان شيخ

الإسلام رحمه الله يجلس في ذكر الله عز وجل من صلاة الفجر إلى قريب من صلاة الظهر ويقول: « هذه غدوتي ولو لم أتغد سقطت قوتي».

وقال رحمه الله: «الذكر للقلب كالماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء؟!».

وقال ابن القيم رحمه الله: « الذكر هو المنزلة الكبرى التي منها يتزود العارفون، وفيها يتجرون، وإليها دائماً يترددون، وهو منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب العارفين التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبيل الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب، به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر هو عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يذكرون معبودهم ومحبوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها،وهو جلاء القلوب وصقالتها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد محبة إلى لقائه بالمذكور واشتياقاً، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء، به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسنة، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري: « تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة،وفي الذكر، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق». [مدارج السالكين (٢/٤٢٣-٤٢٤) وانظر فوائد الذكر في «الوابل الصيب » لابن القيم].

وقد سمى الله عز وجل وحيه روحاً، وسماه نوراً. فقال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (الشورى: ٥٢).

وقال تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) (الأنعام:١٢٢)، وقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (الأنفال:٢٤).

فالداعي إلى الله عز وجل يحيى قلوب الناس بشرع الله ؛ فيحيى الله قلبه بالإيمان ومحبة الرحمن، والجزاء من جنس العمل.

قال النبي : « نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه ليس بفقيه، رب حامل فقه إلى من هو أفقه » [رواه أحمد (٢١٠٨٠)، والترمذي (٢٦٥٧)، وصححه الألباني].

فكما ينضر الداعية قلوب الناس بشرع الله ينضّر الله قلبه ووجهه.

قال سفيان بن عيينة: «لا تجد أحداً من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة، لدعوة رسول الله».

ومن مارس الدعوة إلى الله عز وجل يعلم كيف يزداد بها الإيمان، وتحيا بها القلوب، وتقترب من علام الغيوب، وغفار الذنوب؟!

فنسأل الله تعالى ألا يحرمنا من الدعوة إلى دينه، والتشرف بطاعته وعبادته، والله الموفق.

فتاوى

أفراح العيد

س: ما حكم الدين في اللعب واللهو والسهر أيام العيد؟

ج: في الأعياد المشروعة كعيد الفطر وعيد الأضحى لا بأس بالتمتع بالطيبات المشروعة وإظهار الفرح والسرور على تمام النعمة بالصيام وبالحج.

ومن المتع المشروعة: الغناء الطيب العفيف الذي لا يثير فتنة عقلية أو خُلقية، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم استمع، وأجاز لعائشة أن تسمع الأغاني في يوم العيد. ولما استنكر أبوها أبو بكر ذلك بيّن له الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليوم عيد، ولكل قوم عيد، وفي بعض الروايات «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة».

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم نظر هو والسيدة عائشة إلى لعب الحبشة بالحراب في مسجده، وفي الحديث: «إن لربك عليك حقًا، ولبدنك عليك حقًا»، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لحنظلة الذي يكون عنده في روحانية، فإذا خرج من عنده شُغل بأهله وماله: «يا حنظلة! ساعة وساعة» ثلاث مرات. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقًا.

فالمتعة إذا كانت في حدود المشروع لا مانع منها أبدًا، على أن تكون بقدر، أما الخروج على الآداب والانطلاق في التمتع بما يتنافى مع الدين والأدب فهو ممنوع قطعًا. وتوضيح ذلك موجود عند الحديث عن الموسيقى والغناء. [فتاوى الأزهر ٩/ ٧٨، المفتي، عطية صقر].

قضاء صلاة العيدين

س: بعض الناس في يوم العيد يأتون متأخرين والإمام يخطب، فيصلون والإمام يخطب، فهل يجوز لهم ذلك أم لا يجوز؟

ج: الخير لهم في سماع الخطبة أولاً، ثم يصلون صلاة العيد ليجمعوا بين الفضيلتين، وينبغي أن يوصوا بالتبكير حتى لا تفوتهم صلاة العيد مع الإمام جماعة.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

حكم إعطاء الصغار عيدية

السؤال الثاني من الفتوى رقم (٢٠١٩٥)

س: عندنا أطفال صغار، وتعودنا في بلادنا أن نعطيهم حسب يوم العيد سواء الفطر أو الأضحى ما يسمى بـ(العيدية) وهي نقود بسيطة، من أجل إدخال الفرح في قلوبهم، فهل هذه العيدية بدعة أم ليس فيها شيء؟ أفيدونا أفادكم الله.

ج: لا حرج في ذلك، بل هو من محاسن العادات، وإدخال السرور على المسلم، كبيرًا كان أو صغيرًا، أمر رغّب فيه الشرع المطهر.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

فتوى مهمة للنساء بخصوص صيام العشر الأوائل من ذي الحجة

سائلة تقول: أفطرت في رمضان بسبب الدورة الشهرية ولم أقض ما عليَّ من صيام بعدُ، فهل لي أن أصوم العشر الأوائل من ذي الحجة..؟

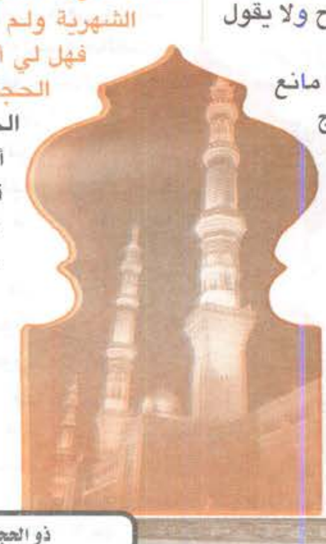

الحمد لله: هذه المسألة تعرف عند أهل العلم بصيام النافلة قبل قضاء رمضان، وفيها خلاف بين العلماء، فمن العلماء من حرم صيام النافلة قبل قضاء الأيام التي على الإنسان؛ لأن البدء بالفرض آكد من النفل، ومن العلماء من أجاز ذلك.

وقد سئل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى: عما إذا اجتمع قضاء

واجب ومستحب، فهل يجوز للإنسان أن يفعل المستحب ويجعل قضاء الواجب فيما بعد أو يبدأ بالواجب أولاً مثال: يوم عاشوراء وافق قضاء من رمضان ؟

فأجاب «: بالنسبة للصيام الفريضة والنافلة لا شك أنه من المشروع والمعقول أن يبدأ بالفريضة قبل النافلة؛ لأن الفريضة دَيْنٌ واجب عليه، والنافلة تطوع إن تيسرت وإلا فلا حرج، وعلى هذا فنقول لمن عليه قضاء من رمضان: اقضِ ما عليك قبل أن تتطوع، فإن تطوع قبل أن يقضيَ ما عليه فالصحيح أن صيامه التطوع صحيح مادام في الوقت سعة؛ لأن قضاء رمضان يمتد إلى أن يكون بين الرجل وبين رمضان الثاني مقدار ما عليه، فمادام الأمر موسعًا فالنفل جائز، كصلاة الفريضة مثلاً إذا صلى الإنسان تطوعًا قبل الفريضة مع سعة الوقت كان جائزًا، فمن صام يوم عرفة، أو يوم عاشوراء وعليه قضاء من رمضان فصيامه صحيح، لكن لو نوى أن يصوم هذا اليوم عن قضاء رمضان حصل له الأجران: أجر يوم عرفة، وأجر يوم عاشوراء مع أجر القضاء، هذا بالنسبة لصوم التطوع المطلق الذي لا يرتبط برمضان.

فتاوى في الأضحية

أصل مشروعية الأضحية

السؤال الخامس من الفتوى رقم (٥١٧٩)

س: هل جاء الأمر بالضحايا في نص القرآن الكريم، وفي أي آية جاء؟

ج: روي عن قتادة وعطاء وعكرمة أن المراد بالصلاة والنحر في قوله تعالى: «إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر» هو صلاة العيد، ونحر الأضحية.

والصواب: أن المراد بذلك: أمر الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجعل صلاته - فريضة كانت أو نافلة- ونحره وذبحه خالصاً لله وحده لا شريك له، كما في قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين صلى الله عليه وسلم لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين».

أما سنة الضحية فقد ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً، وليس بلازم أن يكون كل حكم في القرآن تفصيلاً، بل يكفي في الحكم ثبوت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»، وقوله تعالى: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم»، وقوله سبحانه: «من يطع الرسول فقد أطاع الله»... إلى أمثال ذلك من الآيات.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

حكم الأضحية والأفضل فيها

السؤال الثاني من الفتوى رقم (١٠٨٠٩)

س: ما حكم الأضحية، وما هو الأفضل، هل تقسم لحماً أم طبخها أفضل؟ علماً أن فيه بعض الناس يقول: إنه لا يجوز في الثلث الذي يتصدق به أن يطبخه أو يكسر عظمه.

ج: الأضحية سنة كفاية، وقال بعض أهل العلم: هي فرض عين، والأمر في توزيعها مطبوخة أو غير مطبوخة واسع، وإنما المشروع فيها أن يأكل منها، ويهدي، ويتصدق.

وقت ذبح الأضحية

س: من الناس من يقول: إن الأضاحي لا يجوز ذبحها بعد صلاة العصر في أيام الأعياد، اخبرونا هل صحيح أم جائز إذا ذبحها حتى وقت الغروب؟

ج: يجزئ ذبح الضحية بعد العصر أيام عيد الأضحى، بغير خلاف في يوم عيد الأضحى وأيام التشريق الثلاثة، وكذا في ليالي أيام التشريق على الراجح.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

س: من هم المستحقون أن يهدى إليهم لحم الأضحية، وما حكم من ناول اللحم الأضحية إلى غيره الذي ذبح؟ وأيضاً كثير من المسلمين في بلدنا إذا ذبحوا شاة الأضحية، لا يوزعون اللحم في نفس اليوم الذي ذبحوها فيه، إلا أنهم يتركونها إلى يوم القادم. ولست أدري أذلك سنة أم في فعل ذلك ثواب؟

ج: يأكل صاحب الأضحية من لحمها ويعطي منها الفقراء سداً لحاجتهم ذلك اليوم، والأقارب صلة للرحم، والجيران؛ مواساة لهم، والأصدقاء؛ تأكيداً للأخوة، وتقوية لها، والتعجيل بالعطاء منها يوم العيد خير من التأجيل لليوم الثاني وما بعده؛ توسعة عليهم، وإدخالاً للسرور عليهم ذلك اليوم، ولعموم قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها

السموات والأرض» وقوله: «فاستبقوا الخيرات»، ولا بأس بإعطاء الذابح لها منها، لكن لا تكون أجرة له، بل يعطى أجرته من غير الضحية.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الأفضل في الأضحية

س: أيهما أفضل في الأضحية: الكبش أم البقر؟

ج: أفضل الأضاحي البدنة، ثم البقرة، ثم الشاة، ثم شرك في بدنة - ناقة أو بقرة -؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الجمعة: «من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة»، ووجه الدلالة من ذلك: وجود المفاضلة في التقرب إلى الله بين الإبل والبقر والغنم، ولا شك أن الأضحية من أعظم القرب إلى الله تعالى، ولأن البدنة أكثر ثمناً ولحماً ونفعاً، وبهذا قال الأئمة الثلاثة أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد. وقال مالك: الأفضل الجذع من الضأن، ثم البقرة، ثم البدنة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين، وهو صلى الله عليه وسلم لا يفعل إلا الأفضل. والجواب عن ذلك: أن يقال: إنه صلى الله عليه وسلم قد يختار غير الأولى رفقاً بالأمة؛ لأنهم يتأسون به، ولا يحب صلى الله عليه وسلم أن يشق عليهم، وقد بين فضل البدنة على البقر والغنم كما سبق. والله أعلم.

س: هل يجوز الاشتراك في الأضحية، وكم عدد المسلمين الذين يشتركون في الأضحية، وهل يكونون من أهل بيت واحد، وهل الاشتراك في الأضحية بدعة أم لا؟

ج: يجوز أن يضحي الرجل عنه وعن أهل بيته بشاة، والأصل في ذلك ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، متفق عليه، وما رواه مالك، وابن ماجه، والترمذي وصححه، عن عطاء بن يسار قال: (سألت أبا أيوب الأنصاري: كيف كانت الضحايا فيكم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: كان الرجل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون، حتى تباهى الناس فصاروا كما ترى).

وتجزئ البدنة والبقرة عن سبعة، سواء كانوا من أهل بيت واحد أو من بيوت متفرقين، وسواء كان بينهم قرابة أو لا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن للصحابة في الاشتراك في البدنة والبقرة كل سبعة في واحدة، ولم يفصل ذلك. والله أعلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

ولدت الشاة قبل الذبح

س: اشتريت شاة لأضحي بها فولدت قبل الذبح بمدة يسيرة، فماذا أفعل بولدها؟

ج: الأضحية تتعين بشرائها بنية الأضحية أو بتعيينها، فإذا تعينت فولدت قبل وقت ذبحها فاذبح ولدها تبعاً لها.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

س: إذا كانت زوجتي مع والدي في بيت واحد، فهل يكفي في عيد الضحية ذبيحة واحدة عيداً لي ولوالدي أم لا؟

ج: إذا كان الواقع كما ذكرت من وجود والد وولده في بيت واحد كفى عنك وعن أبيك وزوجتك وزوجة أبيك، وأهل بيتكما أضحية واحدة في أداء السنة.

س: إذا تزوجت إحدى بنات عماتي، وتملكت ملكة ولم أدخل عليها، وهي في بيت أبيها، فهل يجوز أعيد الأضحية أم لا؟

ج: فعل سنة الأضحية لا يتوقف على زواج أو ملاك، فيشرع فعلها لمتزوج ولغير متزوج، وتجزئ عنك وعن زوجتك المذكورة أضحية واحدة.

س: رجل حلق شعره في العشر من ذي الحجة، وهو يريد الأضحية وهو ناسي، فما جزاءه؟

ج: لا شيء عليه؛ لقول الله عز وجل: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه قال: «قد فعلت» أخرجه مسلم في صحيحه.

س: عن العيوب التي تمنع الإجزاء في الأضاحي، والعيوب التي تكره فيها مع الإجزاء، وعن نوعية الأفضل في الأضاحي.

ج: مما لا يجزئ: أن يذبح في الهدي والأضحية العوراء البين عورها، والعمياء، والمريضة البين مرضها، ولا ذات هزال لا تنقي، وعرج يمنع اتباع الغنم، وعضب يذهب لأكثر القرن والأذن، وأفضلها الإبل، ثم البقر، ثم الغنم، والأسمن والأملح أفضل. أما تمام التفصيل فيما يكره ويستحب ففي إمكانك مراجعة كتب الحديث والفقه في هذا الباب لمزيد

الفائدة.

س: عن بيان عدد أيام التشريق التي يسوغ للمسلم أن يستمر في ذبح أضاحيه، ومتى ينتهي وقت التكبير المقيد في أدبار الصلوات المفروضة؟

ج: أيام الذبح لهدي التمتع والقران والأضحية أربعة أيام: يوم العيد وثلاثة أيام بعده، وينتهي الذبح بغروب شمس اليوم الرابع في أصح أقوال أهل العلم. وينتهي وقت التكبير المقيد في أدبار الصلوات المفروضة عقب عصر آخر أيام التشريق.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
السؤال الأول من الفتوى رقم (١١٨٣٤)

هل يجوز كسر الأضاحي بعد الذبح؟ وهل يجوز كسر قرون الأضاحي بعد الذبح؟

ج١: لا شيء في كسر عظام وقرون الأضاحي.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
السؤال الثاني من الفتوى رقم (١٢٥٧٢)

س: هذه العائلة تتكون من اثنين وعشرين فرداً، والدخل واحد، والمصروف واحد، وفي عيد الأضحى المبارك يضحون بضحية واحدة، فلا أدري هل هي تجزئ أم أنه يلزمهم ضحيتان؟ وإذا كان يلزمهم ضحيتان فما هو العمل في السنين الماضية؟

ج: إذا كانت العائلة كثيرة، وهي في بيت واحد، فيجزئ عنهم أضحية واحدة، وإن ضحوا بأكثر من واحدة فهو أفضل.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
السؤال الثالث من الفتوى رقم (٢١٥٧)

س: إنني شهدت كذلك ما ذبح من الضحايا عند صلاة الفجر، هل تجوز هذه الذبيحة في هذا الوقت أم لا؟

ج: لا يجوز ذبح الأضحية عند صلاة فجر العيد، ووقت الذبح يوم العيد بعد الصلاة، وقدرها في حق من لا صلاة عنده كالبادية؛ لما روى جندب بن عبدالله رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن ذبح قبل أن يصلي فليعد مكانها أخرى» متفق عليه.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
الفتوى رقم (١١٦٩٨)

س: هل يجوز للرجل أن يذبح ذبيحة عيد الأضحى وهي ليس مدفوع ثمنها، ثم تسدد بعد مدة؟ وجزاكم الله خيراً.

ج: يجوز ذبح الأضحية ولو تأخر دفع قيمتها عن ذبحها.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
السؤال الثاني من الفتوى رقم (٣٨٨٧)

س: الخروف المقطوع الذيل (الإلية) من صغر، بقصد أن تعم السمنة جسده، هل يجزئ للأضحية والعقيقة؟

ج: لا يجزئ في الأضحية ولا في الهدايا ولا العقيقة مقطوع الذيل (الإلية)؛ لما روى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن، ولا نضحي بعوراء ولا مقابلة، ولا مدابرة، ولا خرقاء، ولا شرقاء) أخرجه أحمد والأربعة، وصححه الترمذي وابن حبان. والمقابلة: ما قطع من طرف أذنها شيء وبقي معلقاً، والخرقاء: مخروقة الأذن، والشرقاء: مشقوقة الأذن. هذا كله إذا كان مقطوعاً، أما إذا كان الخروف لم يخلق له ذيل أصلاً فإنه في حكم الجماء والصمعاء، والحكم في ذلك هو الإجزاء.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
الفتوى رقم (١١٨٢٧)

س: نأمل من فضيلتكم التكرم بإفادتنا - أفادكم الله وأجزل لكم الأجر والثواب - عن نوع وأوصاف الأغنام الصالحة للهدي والأضحية، وعمر كل منها، وهل إذا زاد العمر ثلاث أو أربع شهور عن الحد المقرر شرعاً يجوز ذبحها للهدي والأضحية، أم أنه لا يمكن أن يزيد العمر بأي حال عن الحد الذي حدده الشرع الشريف؟ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ج: يجزئ في الأضحية والهدي من الغنم ما ليست بعوراء بينة العور، ولا عرجاء بينة العرج، ولا مريضة بينة المرض، ولا عجفاء هزيلة لا مخ فيها، ولا يجزئ من الغنم إلا الجذع من الضأن، وهو ماله ستة أشهر، والثني من المعز وهو ماله سنة، ومن الإبل ما له خمسة أعوام، ومن البقر ما له عامين، ثم نكمل فمن ذبح أضحية أو هدياً بهذه الأسنان فما فوق فإنها تجزئه.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

كيف نجعل الأشقاء أصدقاء؟!

إعداد/ **عبد العزيز مصطفى الشامي**

الحمد لله رب العالمين، سبحانه وتعالى له الحمد الحسن والثناء الجميل والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

مما لا شك فيه أن الأبناء نعمة كبيرة، ومنّة عظيمة، فقد أخبرنا الله تبارك وتعالى في سياق تعداد نعمه على عباده -كما في سورة التوحيد والنعم: سورة النحل- أنه جل وعلا امتن على الناس بنعمة الأبناء، فقال سبحانه: « وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ » [النحل: ٧٢]، ولا يعرف مقدار هذه النعمة إلا من حُرِمَها.

وإن من شكر نعمَة الولد: حسن توجيهه، والاهتمام به تغذيةً وتأديبًا وتعليمًا، والاعتناء به في كافة المجالات: إيمانيًا وتربويًا وجسديًا ومعنويًا، وذلك حتى تنمو الثمرة محاطة بظلال وارفة من الدفء التربوي الذي يؤدي إلى أن تؤتي الثمرة أُكلها بعد نموها واشتداد عودها. عن ابن عمرٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، قَالَ: (مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ) [أحمد والترمذي، والحديث في سنده ضعْف].

وقد كانت القبائل العربية قديمًا تحرص على أن تربي أبناءها على قوة أواصر الأخوة وشدة التماسك والتلاحم، ولذا كانت تشتد فيما بين أفرادها أصرة الأخوة وقوة العلاقة والتناصر، حتى ربما ينصر الأخ أخاه والقريب قريبه سواء كان ظالمًا أو مظلومًا، فقد وصف الشاعر العربي ذلك بقوله:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

ومن الملاحظ في الأزمان المتأخرة -وهو مما يؤسف له- أن العلاقات الأسرية بصفة عامة والعلاقة بين الأشقاء بصفة خاصة صارت فاترة، خاملة، إن لم تكن في بعض البيوت معطّلة، تنتظر إعلان القطيعة، وحلول الجفوة، وانقطاع التواصل.

وصار الولد يجد سلواه وراحته مع صديق له بعيدًا عن نطاق الأسرة، يحكي معه، ويروي له، ويفيض بأنواع الحديث، مع أنه في بيته ومع إخوته ووالديه قليل الكلام، بطيء التواصل، وصارت راحة الكثير من الشباب تتمثل في الخروج من إطار المنزل بتوجيهاته وتعليماته.

والسؤال الآن: لماذا لا يكون الأشقاء أصدقاء؟ وكيف نعيد الدفء بين الأشقاء في المنازل؟

في البداية لا بد من تقرير حقيقة مهمة، ألا وهي: أن الآباء في بعض الأحيان لا يساعدون في تقوية علاقة الألفة والصداقة بين الأشقاء، وذلك عبر بعض الوسائل الهادمة لأواصر الأخوة، ومن ذلك:

١- حرص بعض الآباء على إرضاء الطفل الأصغر بصفة دائمة، ربما بحجج كثيرة قد يكون بعضها وجيهًا في الظاهر، فبعض الآباء يرون أن الابن الأكبر قادر على التحمل من الأصغر، وأن الأصغر قد لا يفهم الأمور كما يفهمها الأكبر، لذا يقعون في خطأ يفرّق بين الأشقاء بنصرة الأصغر دائمًا، والحق في العطف على الصغير، وإعطاء الكبير حقه. وكذا مع الابن من ذوي الاحتياجات الخاصة.

وكذلك فالأصل هو العدل بين الأبناء في الحنو والعطف والمال والقبول.. إلخ، حتى لا يطمع الصغير في حق غيره بصفة دائمة، ويكبر على الأثرة، وحب النفس، فلا بد أن يُرَبّى الأبناء على معاني العدل.

٢- كثير من الآباء يستخدمون بعض الأبناء في أعمال غير مشروعة ضد أشقائهم، كالتتبع والتلصص والتجسس عليهم، ونقل الأخبار للآباء، مما يوغر صدور الأشقاء تجاه بعضهم البعض، ويجعلهم يتنافرون ويتقاطعون، بل ربما أبغض أحدهم الآخر.

والأصل أن يرعى الآباء أبناءهم، ويبحثوا عنهم في غير تلصص ولا تجسس.

٣- أهمية الإصغاء إلى المتضرر المشتكي، وعدم التعجل في التخلص من مشكلات الأبناء، فمشكلات الأبناء أمر طبيعي، يتكرر في معظم البيوت،

والخلاف ظاهرة صحية إذا أُحسن التعامل معها، إلا أن بعض الآباء لا صبر له على تحمل مشكلات الأبناء، فضلاً عن سماعها، فبمجرد شكوى أحد الأشقاء من شقيقه، تثور ثورة الأب، ويحمر وجهه، ويرتفع صوته، فيستشعر المظلوم مرارة هضم حقه وضياع فرصته في الاستماع لشكواه. فكثيرًا ما تتضجر الأم أو يثور الأب لمجرد شكوى أحد أبنائهما، وقد يبادر الأب أو الأم بالصراخ أو التهديد حتى ينتهي الأبناء عن افتعال تلك المشكلات.

والصواب أن يحتوي الآباء مشكلات أبنائهم، ويعمقوا أصرة الأخوة، ويوجهوهم إلى التحابّ، وأهمية إيثار الأخ، والفرح له، والسرور بنجاحه، والصبر على عوج أخلاقه، والتحلي بفضائل الأخلاق، وأن الشقيق لشقيقه صنوان لا يفترقان.

٤- عدم قبول الوشاية بين الأشقاء، وتربية الأبناء على الصدق، وبذلك نكون قد أغلقنا بابًا عظيمًا من الشر.

٥- عدم تعيير وتحقير الابن ومقارنته بشقيقه الأفضل منه، فقد يتفوق أحد الأشقاء على الآخر في التعليم أو الأخلاق أو المواهب الفردية، فإذا استخدمنا ذلك في لوم أو تعنيف أو تحقير الابن غير المتفوق بتذكيره دائمًا بتفوق شقيقه، وأفضليته عليه، فإن ذلك مما يورث الكراهية بينهم.

والأصل أن يعلم الآباء أن الواهب -جل في علاه- نوّع أرزاق عباده، ومن ذلك ما نوّع به أرزاق الأبناء في مواهبهم الشخصية، وميولهم وقواهم العقلية، ومميزات كل منهم، وإن الواجب على الآباء أن يبحثوا عن مجال تفوق ابنهم وتشجيعه عليه طالما أنه مجال نافع مفيد، منضبط شرعًا، والأفضل أن نكافئ المتميز من الأبناء دون تحقير الآخرين.

إن الآباء الناجحين ليسوا هم فقط من يكافئون المتفوق من أبنائهم، ويشكرون المجيد منهم، ويثنون بالخير على المتميز منهم، وإنما أنجح الآباء وأفضلهم من يرتقي بأبنائه الضعفاء في المستوى العقلي والتحصيلي والضعف الذهني إلى مرحلة متقدمة يعتمدون فيها على أنفسهم، ويزرعون الثقة في أنفسهم، ويخرجونهم إلى معترك الحياة أقوياء، فالآباء لن يستمروا مع أبنائهم أبد الدهر، وإنما الدنيا مراحل وأيام، وطفل اليوم هو أبُ غدًا، وقديمًا قالوا: من جدّ وجد، ومن زرع حصد!!

٦- تنحية الجانب الإيماني من التربية له مفاسد جمة، إن الآباء الذين يحرصون على تقليد المدارس الغربية في قضايا التربية، فيقبلون نَهمين على ما تدفعه مطابعهم من كتب ودراسات وأبحاث وأشخاص وواقع مغاير لواقع أمتنا، وقد تخالفُ في بعض الأحيان شريعة ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لمخطئون.

إن تنحية الجانب الإيماني وغرس القيم الإيمانية التي تمس شغاف القلوب له مفعول السحر على قوة العلاقة بين الأفراد في المجتمع المسلم، فإذا أحسن الآباء توجيه الأشقاء في الأسرة الواحدة لأحاديث الإخاء والحب في الله: جنوا من ذلك ثمارًا طيبة، تؤدي إلى وحدة الأسرة وقوة العلاقة، وشدة الترابط، وحرص الشقيق على شقيقه، فلا تزيد الأيام العلاقة بينهما إلا قوة، ولا تنفصم الرابطة الإيمانية والأسرية بينهما لأسباب تافهة؛ كأن تفرّق بينهما امرأة: زوجة أحدهم مثلاً، أو دنيا زائلة، أو وشاية مغرضة أو خبر كاذب،... إلخ.

٧- أهمية ترابط الأسرة واتحاد موقف الأب والأم في علاج المشكلات بين الأبناء الأشقاء وكذا في توجيههم، حتى يكون المنهج واحدًا لا يختلف باختلاف أدوار الأب والأم، فيشب الأشقاء على حب أحد الوالدين وبُغض الآخر، إن الأسر غير المترابطة منهجيًا وتربويًا ومعنويًا ونفسيًا قد ينشأ من بين أفرادها من يسلك سبيل الانحراف، خصوصًا حين تتبع الأسرة أساليب تربوية غير صحيحة تعود بآثار سلبية، فقد تكون عملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة خاطئة ينقصها تعلم المعايير والأدوار الاجتماعية السليمة والمسؤولية الاجتماعية، أو تقوم على اتجاهات سلبية، مثل التسلط والقسوة والرعاية الزائدة، والتدليل والإهمال والرفض والتفرقة في المعاملة بين الذكور والإناث، وبين الكبار والصغار، وبين الأشقاء وغير الأشقاء والتذبذب في المعاملة، إلخ.

أيها الآباء.. الزموا العدل والقسط بين الأبناء، واحرصوا على تقريب القلوب بين الأبناء، ربوا أبناءكم على أن يفرح الأخ لنجاح وسعادة شقيقه، وأن ينعكس نجاح أحد الأبناء بالسعادة والسرور على باقي الأسرة؛ تشجيعًا للمقصر لينجح، ودفعًا للمفرط للتفوق، واحذروا التقريع واللوم الكثير فإنها أساليب قد تضر أكثر مما تنفع.

أسأل الله أن يبارك لنا في الأهل والولد والمال، وأن يصلح لنا ذريتنا، إنه سميع مجيب.

القناعة

إعداد/ د. السيد عبد الحليم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فإن القناعة سمة من سمات المسلم المؤمن الراضي بما آتاه الله تبارك وتعالى، المدرك لحقيقة أن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

والقناعة معناها: الرضا بما قسم الله تبارك وتعالى.

أولاً: القناعة سمة للمؤمن الصادق:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه». [صحيح مسلم: ١٠٥٤].

هذا الحديث الشريف الجليل القدر، يبين صفة من صفات المفلحين، وهم الذين هُدوا إلى الإسلام وآتاهم الله تبارك وتعالى من الرزق ما يكفيهم ولا يلهيهم، وقد قنعوا بعطاء الله تبارك وتعالى.

ثانيا: دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقناعة وتعليمها لأصحابه:

فقد كان الحبيب صلى الله عليه وسلم يدعو ويعلم أصحابه ويعلمنا أن ندعو كذلك بأن يرزقنا الله تبارك وتعالى القناعة، ففيما أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو: «اللهم قنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليَّ كل غائبة لي بخير». وفي رواية : «واخلفني في كل غائبة بخير»، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يدعو بهذا الدعاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم ارزق آل محمد قوتًا». [أخرجه الشيخان].

وكان صلى الله عليه وسلم قانعًا بكل ما آتاه الله عز وجل، وعوَّد أصحابه ذلك، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا تسع تمرات، وكنا تسعًا، فأعطى تمرة تمرة. [القناعة لابن السني: ص٥٥].

هذا العطاء اليسير الذي قد تزهد فيه النفوس، يبين لنا أبو هريرة رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قنعوا به ورضوا به، ورضوا بما آتاهم الله ورسوله من فضله.

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، علمني دعاء أنتفع به، قال: «قل: اللهم اغفر لي ذنبي ووسِّع في خُلُقي وبارك لي في كسبي وقنعني بما رزقتني، ولا تفتني بما زَويت عني». [الترمذي: ٣٤٩١، وضعفه الألباني].

أي: لا تعلق قلبي بما أخفيت عني حتى لا أُفتن وأتعلق بما لم تقدره لي، هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو، وهكذا كان يعلم أصحابه ويعلم الأمة القناعة.

ثالثا: من الأسباب المعينة على تحقيق القناعة:

١- أن تدرك أنك في هذه الدنيا ضيف لا يلبث أن يرحل، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب». [صحيح مسلم: ٢٤٠٨].

إذا أدركنا ما عند الله تبارك وتعالى من الخير؛ فإننا ندرك أن ما نحن فيه إنما هو بمثابة نُزل الضيف، والضيف لا يتعلق بما في دار الضيافة، إنما يأخذ ما يكفيه في أدب وفي قناعة، ثم هو يدرك أنه راحل عن هذا، وذلك يُعينه على أن يلتمس القناعة.

٢- أن تدرك أنه لا فائدة من جمع ما لا تنتفع به: لقد خُلق الإنسان جَموعًا مَنُوعًا، والعاقل إذا تأمل سأل نفسه: ما قيمة الجمع الكثير الذي لا آكله ولا أشربه ولا أتمتع به ولا يكون لي فيه فائدة عملية؟ هذا ما يجب أن يدركه كل عاقل، ولكن إذا كان الإنسان طُبع على الطمع، وعلى أن يجمع ويمنع، فإن الدين قد جاء ليهذب هذا الطبع العجيب.

يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: «ما طلعت الشمس قط، إلا وبجنبتيها ملكان يناديان يُسمعان كل ما على الأرض إلا الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم، ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى». [مسند أحمد: ٢١٧٦٩، وصححه الألباني].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا، ولا يسد جوف ابن

آدم إلا التراب». [صحيح البخاري: ٦٤٣٨].

والعاقل يسأل نفسه: ما قيمة الوادي والواديين والثلاثة؟ ما قيمة كل هذا إذا كان لا ينتفع به؟ ليس لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، كل ما سوى ذلك هو زاد تتعب في جمعه وتُحاسب على منعه، وتُسأل عنه بين يدي الله تبارك وتعالى.

إن مما يملأ القلب قناعة أن يدرك الإنسان أن جمع ما لا فائدة فيه، وجمع ما لا ينتفع به هو تعب من غير طائل؛ ومن ثم يرضى بما آتاه الله تبارك وتعالى ويقنع به.

رابعا: فوائد القناعة:

أما فوائد القناعة، فهي عظيمة جليلة:

١- فأقنع الناس هم أغنى الناس؛ لأن الغنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس». [صحيح البخاري: ٦٤٤٦].

الغنى: أن تدرك أنك لست في حاجة إلى غير الله تبارك وتعالى، وأن تستغني عن الناس وعما في أيدي الناس، هذا هو الغنى الحقيقي، فالقانع هو أغنى الناس.

وقد ورد أن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل: أي رب، أي عبادك أغنى؟ قال عز وجل: أقنعهم بما أعطيته، قال: يا رب فأي عبادك أعدل؟ قال عز وجل: من دان نفسه. [الزهد لهناد: ١/٢٧٧].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن موسى عليه السلام سأل ربه، قال: رب أي عبادك أغنى؟ قال: الراضي بما أعطيته، قال: فأي عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لي ذكرًا، قال: يا رب فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم على نفسه بما يحكم به على الناس. [سنن الدارمي: ٣٦٢، وصححه الألباني].

٢- أنها تغني صاحبها عن الوقوف على أصحاب المال أو التذلل لذوي الجاه والسلطان، وهذا هو عز النفس الذي تحققه القناعة للقانع.

وقد كتب إلى الرجل العابد الزاهد أبو حاتم أحد أبناء بني أمية يعزم عليه أن يرفع إليه حاجته، فكتب إليه يقول: أما بعد، فقد جاءني كتابك تعزم عليّ أن أرفع إليك حوائجي، وهيهات، قد رفعت حوائجي إلى ربي فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عليَّ منها قنعت، هكذا كان الصالحون. [القناعة لابن السني ١/٤٣].

٣- أن يُرْزق الإنسان الحرية، فإن العبد يكون حرًا متى قنع، عبدًا متى طمع، فهو عبد للدينار، عبد للدرهم، عبد للقطيفة، عبد لمن أحسن إليه، عبد لمن كان بيده أن يعطيه أو يمنعه.

فإذا تخلص الإنسان من هذا المعنى ورُزق القناعة، لم يكن عبدًا إلا لله تبارك وتعالى، وتلك قيمة في غاية الأهمية، وهذه صفة لا يصح أن يخلو منها داعٍ إلى الله وحامل للرسالة.

خامسا: قناعة مذمومة:

وإني أشير في نهاية المطاف إلى معنى خاطئ من معاني القناعة عند بعض الناس، يفهم بعض الناس القناعة أنها رضا بالواقع وعدم تغييره، وعدم سعي إلى تحسينه، وهذا غاية الخطأ، فالقناعة ليست رضا بالواقع بكل ما فيه، إنما رضا بعطاء الله، رضا بقدر الله، وأما الواقع الفاسد، فالقناعة تعني السعي في تغييره.

فليس من القناعة أن ترى المنكر وتسكت وترى أنك لا بد أن ترضى بقدر الله وهكذا الدنيا.

وليس من القناعة أن ترى معروفًا فلا تسارع إليه ضنًا منك بجهدك وظنًا منك أن هذا من القناعة.

ليس من القناعة أن يُفتح لك باب رزق من حلال فتقعد ولا تلتمسه، وترى أنك قانع، لا يلزمك أن تجمع، بل يلزمك أن تسعى لتكسب لتعطي الفقراء من مال الله وتنفع دين الله ودعوة الله بمالك.

ليس من القناعة على الإطلاق الرضا بالباطل، أو الرضا بالواقع السيئ، أو الرضا بالواقع المر، بل هذا من السلبية التي نهانا الله تبارك وتعالى عنها، بل هي ما يسمى باللامبالاة؛ فحين ترى المنكر وترى الباطل وترى أهله، وترى الحق ينكمش والباطل يتمدد وترى أسباب الفساد، ثم تقعد وترى أنك قانع بما أنت فيه، فهذا ليس من القناعة.

القناعة إذن؛ هي معنى نفسي يعني الرضا بعطاء الله، ويعني عدم التذمر أو التسخط على ما أعطاك الله تبارك وتعالى، لكنه لا يعني أبدًا أن تقعد عن تحصيل الرزق الحلال أو أن تقعد عن إصلاح الفساد وتقويم العوج.

هذا هو المعنى الصحيح للقناعة أيها الأحبة، أسأل الله العلي العظيم أن يقنعنا بما آتانا، وأن يبارك لنا فيما رزقنا، وألا يفتننا بما زوى عنا، وأن يوفقنا أن نكون من أهل الخير، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سارع أخي المسلم وأختي المسلمة

بالمشاركة بجزء من مالك ومن الزكوات أو الصدقات لنشر التوحيد من خلال المشاركة في الأعمال التالية:

- طباعة كتيب يوزع مع مجلة التوحيد مجانًا تتكلف النسخة خمسة وسبعين قرشًا .. يطبع من كل كتيب مائة وخمسون ألف نسخة.
- نشر تراث الجماعة من خلال طبع المجلة وتجليد أعداد السنة في مجلد واحد وذلك لعمل كرتونة كاملة ٣٨ سنة من المجلة.
- دعم مشروع المليون نسخة من مجلة التوحيد - نسخة من المجلة لكل خطيب من خطباء الأوقاف والأزهر تصله على عنوانه.

نحن بانتظاركم .. يمكنكم المشاركة ودعم ذلك بعمل حوالة أو شيك مصرفي على بنك فيصل الإسلامي. .. فرع القاهرة حساب رقم ١٩١٥٩٠ باسم مجلة التوحيد.

الآن

مفاجأة سارة

التوحيد
أوسع المجلات الإسلامية انتشاراً في العالم
٤٠ مجلداً
اطلبوها من باعة الصحف والمكتبات
٨ شارع قولة - عابدين ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ - ٢٣٩١٥٤٥٦

موسوعة التوحيد

ببلاش

- بشرى سارة لإدارات الدعوة في فروع أنصار السنة بأنحاء الجمهورية .
- الموسوعة العلمية والمكتبة الإسلامية في شتى العلوم ، أربعون عاماً من مجلة التوحيد .
- أكثر من ٨٠٠٠ بحث في كل العلوم الشرعية من مجلدات مجلة التوحيد .
- استلم الموسوعة ببلاش بدون مُقدَّم ؛ فقط ادفع ٧٥ جنيهاً بعد الاستلام على عشرة أشهر .
- من يرغب في اقتنائها فعليه التقدم بطلب للحصول عليها من إدارة الدعوة بالفرع التابع له
  أو من خلال قسم الاشتراكات بمجلة التوحيد بطلب مُزَكًى من الفرع .
- علماً بأن نموذج طلب الشراء والإقرار المرفق به من قبل الفرع موجود على موقع أنصار السنة
  وصفحة الفيسبوك الخاصة بكل من رئيس التحرير وصفحة مجلة التوحيد .
- هدية لكل من يرغب في اقتناء كرتونة المجلدات عبارة عن فهرس عام للمجلة وفهرس موضوعي يسلم بعد طبعه للفروع والمشتركين .

ومفاجأة أخرى
المجلد الجديد لعام ١٤٣٣ هـ
موجود الآن؛ سارع بالحصول عليه بـ ٢٥ جنيها فقط

التوحيد
١٤٣٣
رئيس التحرير
جمال سعد حاتم
١٤٣٣

☎ 23936517